
عبد الوهاب مطاوع
أرجوك ..
أعطني عمرك

إهـــــداء:2004

عبد الوهـاب مـطاوع

أرجوك
أعطني عمرك

الناشـــر : **الدار المصرية اللبنانية**

١٦ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع : ١٨٤٣ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى : 9 - 586 - 270 - 977

جمع وفصل ألوان وطبع : **عربية للطباعة والنشر**

العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣

الطبعة الأولى : شـــوال ١٤٢٠هـ ـ يناير ٢٠٠٠م

أرجوك أعطني عمرك

عبد الوهاب مطاوع

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

صدق الله العظيم

مقدمة

فى هذا الكتاب فصل بعنوان « أرجوك . . أعطنى عمرك » ، قلت فيه إن الإنسان يحتاج لأن يعيش حياته أكثر من مرة لكى يجيد فن الحياة ويحسن التعامل مع ما يواجهه فيها من اختبارات وتناقضات وألغاز محيرة . . ولأن الأمنية مستحيلة ، فإنه يحاول أن " يطيل " عمره المحدود بإضافة أعمار الآخرين إليه . . أى بإضافة ما تعلمه الآخرون من دروس حياتهم وتجاربهم إلى ما تعلمه هو من أخطائه وعثراته ، فكأنما يضيف بذلك عصارة أعمارهم إلى عمره ، وكأنه حين يطلب النصيحة من غيره ، فكأنما يرجوه أن " يمنحه عمره " ليستفيد بدروسه وحكمته فيما يواجهه من مواقف وامتحانات .

وفى هذا الكتاب أروى لك بعض تجاربى وخواطرى وذكرياتى خلال رحلة العمر ، لعلك تجد فيها بعض ما تستفيد به أو يستحق التأمل والتفكير ، كما استفدتُ أنا من قبل بتجارب كل من قرأت لهم خلال

رحلة السنين ، وكل من اقتربتُ منهم على المستوى الشخصى واستمعت باهتمام شديد إلى ذكرياتهم وتجاربهم الشخصية وآرائهم فى الحياة .

فالإنسان يتفاعل إراديًّا ولا إراديًّا مع كل من يتعامل معهم فى علاقاته الشخصية ، وما يلاحظه فى الحياة ويرقبه عن قرب فى حياة الآخرين ، أو يقرأه مسطورًا على الورق فى الأدب والتاريخ وكتب التراجم الشخصية .

فإذا رجوتك ذات يوم صادقًا أن تعطينى عمرك فلا تظن بى الظنون ، وإنما ثق أننى أطلب منك بهذا الرجاء خبرتك وثمار تجاربك الشخصية ودروس حياتك . . وكل ذلك قد تجد بعضه فى هذا الكتاب . . وقد ترى - كرمًا منك وفضلاً - أن نتبادل الاستفادة ، فتنقل لى ذات يوم خبرة حياتك وتضيف عمرك السعيد إلى عمرى المكدود . . وشكرًا .

عبد الوهاب مطاوع

وَدِّعْ هواك

كنتُ في زيارة لمدينتى الصغيرة بالوجه البحرى..

حين وقعتْ عليه عيناى خُيِّلَ إلىّ أننى أعرفه، لكنى لا أتذكر اسمه .. أما هو فلقد خيل إلىّ أيضًا أنه قد عرفنى ، وإن كان لا يتذكر اسمى .. وحين حييته رَد علىّ التحية بأدب، ولكن بلا حرارة، وقالت لى ابتسامته الخفية بلا كلمات : شكرًا ، لأنك قد عرفتنى بعد كل هذه السنين .. لكن أرجو أن تكتفى بالتحية العابرة وتنصرف إلى حال سبيلك، فلقد أصبحنا من عالمين مختلفين .. ولا أمل في استعادة الماضى البعيد الذى لا يرجع أبدًا !

لماذا تخيلتُ هذا الحوار الصامت معه ؟ هل لأن حال ذلك الرفيق القديم من رفاق الصبا لا يمكن أن يوحى بغيره ؟

ربما . . فقد كان « درويشًا » من الدراويش الذين يقضون يومهم كله إلى جوار مسجد سيدى إبراهيم الدسوقى مستغرقين فى تأملاتهم وسبحاتهم، ويستعينون على الحياة بتجارة هامشية بسيطة قد تباع . . وقد لا تباع . وبالرغم من ذلك فإن فى الوجه صفاءً غريبًا . . وفى القلب فراغًا من الدنيا ومطامعها وهمومها يحسده عليه كل ذى قلب حكيم ، فكيف تفرقت بنا حظوظ الحياة على هذا النحو فأصبح هو هذا الرجل الجالس فى سكون على رصيف هذا المسجد . . وأصبحتُ أنا ذلك الرجل اللاهث دومًا فى سباق الحياة ! ولماذا غبطتُهُ على صفاء روحه وسلامه النفسى . . وفراغه من هموم الدنيا ؟ !

إنه ليس الوحيد بين مَن جمعتنى بهم الحياة بالصدفة بعد ٤٠ عامًا أو تزيد من طفولتنا المشتركة ، فتأملتُ كيف اختلفت بيننا حظوظ الحياة، وشعرتُ نحوهم بالحنين القديم ، وتمنيتُ لو استطاعوا أن يتجاوزوا حاجز السنين الوهمى ويرجعوا إلى مودتهم السابقة معى . . حين كنا صغارًا نلعب فى الشوارع ولا ندرى ماذا تخفى لنا الحياة فى قادم الأيام ؟

فمنذ سنوات كنتُ مسافرًا بالقطار من القاهرة للإسكندرية ، فإذا بائع للمجلات القديمة يدخل العربة منشدًا بصوت جميل بعض الكلمات المنظومة ليروج بها لسلعته البسيطة . . فما أن وقعت عليه عينَاى

حتى تذكرته ، وسرت البهجة فى روحى . . إنه زعيم أطفال الشارع فى الزمن القديم ، لم تكد السنون تغير الكثير من ملامح وجهه الأسمر . . أو لمعة الذكاء البادية فى عينيه . . وها هو يستخدم صوته الجميل وبراعته القديمة - التى طالما بهرنا بها ونحن صغار - فى كسب الرزق والتحايل على الحياة ، فكيف لم تؤهله مؤهلات الزعامة القديمة لأكثر من هذا الحظ القليل من حظوظ الحياة ؟ لقد راقبته مبتهجًا فى انتظار أن يصل إلى مقعدى ، فأستوقفه وأستعرض ما معه من مجلات وأشترى بعضها ، ولو لم أكن فى حاجة إليه . . وأسأله خلال ذلك عن أحواله وحكايته مع الأيام ، وأتبادل معه بعض الذكريات . . فما أن اقترب منى ولمحنى حتى لمع بريق التذكر فى عينيه الذكيتين ووشت ملامحه بابتسامة حيية ، وقبل أن أنطق بكلمة كان قد تجاوزنى فى خفة إلى من بعدى بغير أن يتوقف أمام صف المقاعد الذى أجلس فيه . . أو الصف الذى يليه ، ثم واصل عرض بضاعته البسيطة وسمعته يغنى من بعيد : ودّع هواك وانساه وانسانى ، عمر اللى فات ما حيرجع تانى . . يا مجلات بربع جنيه المجلة !

فهل كان يقصدنى بهذه الكلمات الموحية ، ويريد أن يقول لى إنه لا أمل فى تجاوز الفوارق الاجتماعية التى قامت بيننا ، فأصبحتُ أنا من ركاب القطار وهو من باعة الأشياء البسيطة فيه ؟ أم هل أراد أن يعفى نفسه من حرج رؤيتى له وهو يمارس عمله الهامشى هذا ، بعد أن كان الزعيم المبرّز بيننا ونحن أطفال صغار لا فوارق بيننا ولا تفاضل إلا بالمهارة فى اللعب !

ولماذا حرمنى من بهجة استرجاع هذه الذكريات السعيدة معه لبعض الوقت . . ومن يُدريه أننى مازلتُ لا أخلو من إعجاب قديم بمهارته وذكائه وخفة ظله ، التى مازالت تنعكس على طريقة ترويجه لسلعته البسيطة ؟

ومن قال له إننى أقوّم علاقتى بالرفاق القدامى بحظوظهم من الحياة، ومقدار ما حققوه من نجاح فى حياتهم العملية ؟

إن من بين رفاق طفولتى وصباى مَن أصبحوا الآن رجال أعمال قادرين ، أو شغلوا أكبر المناصب فى الجيش والشرطة والحكومة والجامعات ، ومن بينهم كذلك مَن لم يتجاوز نصيبهم من الحياة مثل هذه الأعمال البسيطة والهامشية ، كهذا الدرويش السعيد . . وهذا البائع الجَوّال فى القطارات . . وذلك الملاحظ لموقف سيارات الأجرة فى المدينة الصغيرة . . وذلك الموظف الصغير الذى لم يحقق طموحه العملى فى الوظائف الحكومية ، فعَوّضَتْهُ الحياة عن ذلك بثلاثة أبناء ناجحين من الأطباء والمهندسين .

فمن قال لأصحاب الحظوظ القليلة فى الحياة إنهم فقدوا جدارتهم بصداقة الرفاق القدامى لمجرد أن الحياة قد منحتهم بعض ما حجبته عنهم ، ولماذا يستسلمون لهذا الحاجز الوهمى الذى يشعرهم - خطأً - بانعدام جدارتهم بمثل هذه الصداقة ؟ !

وما هى مقاييس الفشل والنجاح فى الحياة العملية ؟

هل ينحصر النجاح فقط فى النجاح المادى والعملى فى الدنيا ؟

وأليست السعادة والتوفيق فى الحياة الخاصة والانطلاق ، والسلام النفسى والابتهاج بالحياة غايات غالية كذلك ، تهفو إليها نفوس المحرومين منها ؟

فى عام ١٩٦٥ كان جمال عبد الناصر ملء الأسماع والأبصار فى أركان الدنيا الأربعة ، ولم تكن هزيمة يونيو ١٩٦٧ قد وقعت بعد فقصمت ظهره ونالت من هيبته ومكانته ، حتى قال بعض زملائه القدامى إنه قد مات فى يونيو ١٩٦٧ ، ودفن فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ تاريخ وفاته الحقيقى . وقرر زملاء دفعة عام ١٩٣٨ من الكلية الحربية أن يحتفلوا بمرور ٢٧ عامًا على تخرجهم ، فأقاموا لذلك حفلا ودعوا إليه زميل دفعتهم عبد الناصر ، وجاء الزعيم فصافح زملاء الدفعة القدامى ، وحين جاء الدور على الفنان أحمد مظهر ، وكان هو الآخر فى قمة نجوميته وبريقه الفنى فى ذلك الوقت ، حياه عبد الناصر وقال له :

ـ إنت اللى فلحت فينا !

وضحك زملاء الدفعة واعتبروها نكتة ظريفة من رئيس الدولة . . لكنها لم تكن نكتة ولا مجاملة . . فلقد كانت حياة أحمد مظهر أكثر بهجة وسعادة ومتعة من حياة رئيس الدولة الجافة المثقلة بالهموم والقيود والمسئوليات ، وكان عبد الناصر يقول لزملاء دفعته بهذه العبارة ما قاله أبو الطيب المتنبى منذ مئات السنين : إنى بها أنا باكٍ منه محسود !

وفى التاريخ الإسلامى قصة تنفيها بعض المصادر وتثبتها مصادر أخرى عن ثلاثة من رفاق الصبا جمعت بينهم الصداقة والمودة فى فارس فى القرن الخامس الهجرى ، وتعاهدوا فيما بينهم على أنه إذا أصبح لأحدهم شأن فى المستقبل أن يمد يد العون والمساعدة لزميليه ، ثم دارت الأيام دورتها فأصبح أحدهم وزيرا ، وجاءه رفيقا الصبا يستنجزانه الوعد ، فسأل كلا منهما عما يريده لنفسه ، وكان أحدهما شاعرًا يجرى وراء عرائس الخيال ولا مطمح له فى جاه ولا سلطان ، فطلب منه أن يجرى عليه ما يكفيه مئونة العيش فى رخاء ، فأجابه إلى ما طلب .

وكان الآخر طموحًا ومتطلعًا إلى الجاه والسلطان ، فطلب منه أن يوليه عملا فى ديوانه ، واستجاب له ، فلم يمض وقت طويل حتى بدأ يصطنع لنفسه الأتباع ويتآمر على اغتيال صديقه القديم ، ثم فر بعد انكشاف مؤامرته وأسس فرقة الحشاشين المعروفة فى التاريخ ، التى عمدت إلى اغتيال خصومها فى الرأى غيلة ، واحتمى مع أتباعه بحصن « آلموت» الجبلى المنيع . . وكان من بين مَن اغتالهم الأتباع ذلك الوزير الذى مد إليه يد العون قبل سنوات ، فأما الشاعر الذى لم يطلب من الحياة سوى العيش فى سلام ، فقد كان عمر الخيام . . وأما مؤسس فرقة الحشاشين الذى عاش حياته حتى مماته إما محتميًا فى الحصن أو فارًّا من جنود الحاكم حتى مات فهو الحسن بن الصباح ، وأما الوزير الذى اغتاله رفيق صباه القديم فهو الوزير السلجوقى نظام المُلك .

وأما لو سألتنى مَنْ مِن هؤلاء الرفاق الثلاثة هو الذى أفلح بحق وفاز

بأفضل نصيب من الحياة بينهم ؟ لأجبتُك على الفور : إنه عمر الخيام . . الذى عاش حياته فى وداعة . . وأثرى الحياة بأشعاره الجميلة ، وتأملاته الفلسفية التى بقيت على مر الزمن . ولا عجب فى ذلك ، لأن معايير النجاح نسبية فى النهاية وليست مطلقة ، وكذلك مطالب الحياة بالنسبة للأشخاص ، فما يعتبر بالنسبة لإنسان هدفًا تافهًا ، قد يعتبر بالنسبة لشخص آخر غاية المنى ، ولهذا قال الكاتب الإنجليزى الساخر جوناثان سويفت مؤلف رواية « رحلات جاليفر » الشهيرة : « إن الفقير قد يتسول كسرة خبز ، أما الثرى فإنه يتسول مملكة » !

وقال الإمبراطور الرومانى الحكيم ماركوس أورليوس : « يُعجب العنكبوت بنفسه إذا اصطاد ذبابة ، ويتباهى رجل بنفسه بأنه اصطاد أرنبًا ، ويفرح آخر إذا أمسكت شبكته بسمكة ، ويسعد ثالث إذا انتصر فى معركة أو فتح مدينة !» .

وفى كل حالة من هذه الحالات ، شعر كل إنسان من هؤلاء بأنه قد حقق هدفًا عزيزًا فشعر بالرضا عن نفسه ، وهذا هو المطلوب دائمًا : الرضا عن النفس ، وعما أتيح للإنسان من حظوظ الحياة . وأنا شخصيًّا أعتبر النجاح الحقيقى فى الحياة الذى يستحق الكفاح من أجله والسعى إليه . . هو السعادة الشخصية والعيش فى سلام مع النفس ومع الآخرين ، أيًّا كانت الأسباب التى أتيحت للإنسان خلال رحلة الحياة .

ولهذا فإنى حين قرأتُ رأى الفيلسوف الألمانى ماكس نوردو فى

النجاح : « يمكننى أن أحصر النجاح فى أن يكون الإنسان محترمًا وذا قدر عظيم فى نظر الكثيرين من الناس » ، قلت لنفسى : إنه لا أحد يكره أن يكون محترمًا وذا قدر عظيم بين الناس ، ولكن ماذا عن السعادة والرضا عن النفس وعن الحياة يا سيدى الفيلسوف ؟

وماذا يُفيد الإنسان أن يكون محترمًا وذا قدر عظيم عند الناس ، وهو تعيس فى حياته الخاصة ، وحزين القلب ، ومنغص البال والنفس بأطماع وطموحات . . يتعذب باللهاث المستمر لبلوغها دون طائل ، لأنه كلما نال مطلبًا لم يسعد بما ناله . . وإنما تطلع لما هو أبعد منه بغير أن يشعر بالرضا أو الاكتفاء ؟ !

لقد كان الإمام الفقيه ابن قيم الجوزية يقول : « الرضا هو سكون القلب تحت مجارى الأحكام » . . وحين قرأتُ هذه العبارة الحكيمة هتفتُ صامتًا : صدقتَ والله يا مولانا الإمام . . فالمهم حقًّا هو سكون القلب وسلام النفس ، سواء أكنت وزيرًا أو خفيرًا ، ولن تستمتع أبدًا بسكون القلب إذا خالطه الكره والحقد والغل والطمع فيما بأيدى الآخرين ، والسخط على ما أتاحته لك الحياة من أسباب ، لأن «كره الآخرين طرد إرادى للسعادة » – كما يقول الكاتب الفرنسى بول فاليرى – كما أنك لن تعرف النجاح الحقيقى أبدًا إلا إذا سعيتَ إلى أهدافك فى الحياة بالطرق المشروعة ، وبذلتَ كل جهدك لتحقيقها وأنت تقول لنفسك : أديتُ واجبى وبذلتُ غاية جهدى ، وليس لى من الأمر بعد ذلك شىء ، فإن هطلت علىّ ثمار الكفاح ، فشكرًا للمانح العظيم جل

شأنه ، وإن تباطأ جَنْيُ الحصاد فلحكمةٍ قدّرها ربى ويقصر عنها فهمى . . والحمد لله على كل حال .

أما أنا فلقد غبطتُ الدرويش الذى رأيته فى مدينتى الصغيرة ذات صباح غير بعيد وتمنيتُ صفاء روحه وخلو باله ، وغبطتُ « زعيمى » القديم فى الزمن البعيد ـ بائع المجلات القديمة فى القطارات ـ وتمنيتُ بعض انطلاقه وابتهاجه بالحياة ، ورجوتُ لهما ولى وللجميع : سكون القلب تحت مجارى الأحكام . . وشكرًا !



لوكاندة النوم غير المريح

فجأة وجدتُ نفسي في موطن الذكريات القديمة .. فتجددت في قلبي أحداثها ورموزها ..

فلقد كنت عائدًا بعد منتصف الليل من عيادة طبيب الأسنان بالدقي، وتوقفتُ أمام صيدلية بشارع المتحف الزراعي لأشترى الدواء الذى أشار به ، فتلفتُّ حولى متعجبًا كيف لم أجىء إلى هذا المكان طوال السنوات الماضية ؟ ثم ابتعدتُ عن الصيدلية والسيارة وتجولتُ باحثًا عن معالم الذكريات القديمة متسائلا : ترى هل مازالت في مواقعها ، أو جرى عليها ما يجرى على معظم المعالم القديمة من الانقراض ؟

ها هو مدخل العمارة القديمة التى أقمتُ فى بنسيون بالدور الأرضى منها ولما أبلغ من العمر ١٩ عامًا ، فأى معجزة حمت مدخلها الرخامى من التدهور والإهمال !

وها هو الدرج العالى الذى يرتفع إلى مدخل العمارة وكان يقف عليه دائمًا بوابها الصعيدى الأسمر بشواربه الطويلة المفتولة . . فنسميه « أبا شنب » . . أما غرفتى وفراندتها المطلة على الشارع الجانبى فقد كان لابد من أن أدور حول العمارة لأراها . . فرجعتُ إلى الشارع الجانبى . . وتأملتُ باب المحل المغلق إلى اليمين وتساءلت : أمازال صاحبه على قيد الحياة ويفتحه ساعات النهار فقط كما كان يفعل فى أيامنا ؟

اقتربتُ من الفراندة التى تطل على الشارع من ارتفاع قليل وتأملتها بحنين غريب ، واسترجعتُ صورتى وأنا واقف فيها فى أوقات الأصيل ، أنظر إلى الفيلا المواجهة لى وأرقب حياة أصحابها الوادعة . . وأتابع محاولات ابنة أصحاب الدار - التى لم تكن تتمتع بجمال كبير - للفت أنظار صديق شقيقها الذى يجىء لزيارته كل يوم تقريبا فترتبك حين تراه . . وترحب به بحرارة . . وتدعوه للجلوس فى فراندة الفيلا إلى أن تستدعى شقيقها من الداخل . . وتقدم له مشروب الضيافة قبل أن تبلغ شقيقها بوصوله ، وتكاد أن تقول له بغير كلمات : لماذا لا تخطبنى وتحقق أحلامى فى السعادة والزواج ؟ ترى ماذا فعلت الدنيا بهذه الفتاة الطيبة ، وهل حققت لها الحياة أحلامها ؟

وجدتُ الفيلا على حالها ولم تهدم لترتفع مكانها عمارة شاهقة كالكتلة الصماء ، فاعتبرتُ ذلك أيضًا معجزة أخرى من معجزات هذا الزمان الشحيح فى تقديره للجمال . . وتلفتُّ إلى الناحية الأخرى لأرى البيت الصغير المكون من دورين ، والذى كان يقيم بدوره الأرضى زوجان يتبادلان الحب والعطف بغير إنجاب ، ويقيم فى دوره الأول « وليم أفندى » صاحب البنسيون الذى أقمت به بالعمارة المجاورة ، ويقيم بدوره الثانى موظف وزوجته الشابة الحسناء ، وشقيقته التى تبلغ السادسة عشرة من عمرها ، فوجدتُ البيت الصغير قد أصابه « وباء » التعلية والتشويه ، واختفت حديقة الدور الأرضى الصغيرة وأقيم فيها صف من المحلات الكئيبة . . فترحمتُ على الأيام الجميلة التى كان يجلس فيها الزوجان المتحابان فى تلك الحديقة وقت الأصيل يشربان الشاى ويتبادلان المداعبات والضحكات .

كنتُ فى ذلك الوقت فى عامى الجامعى الثانى ، وعامى الثانى أيضًا بالقاهرة ، بعد أن جئت إليها من مدينتى الصغيرة للالتحاق بكلية الآداب ، وكنت قد أمضيتُ عامى الأول بالقاهرة مقيمًا فى غرفة مفروشة بين أسرة موظف بوزارة الأوقاف بشارع الدقى ، وكان تقليدًا شائعًا بين بعض الأسر المقيمة بالقرب من جامعة القاهرة أن تؤجر إحدى غرف مساكنها لطالب صغير مغترب مثلى لقاء أجر شهرى . . ومقابل أن تهتم بأمره كأحد أفراد أسرتها ، فترعى شئونه وتراقب سلوكه وتكتب لوالد الشاب إذا بدرت منه أية بادرة انحراف . وكانت الأسرة التى أقمتُ بين

أفرادها فى ذلك الوقت أسرة مصرية طيبة . . ربتها أم رؤوم لثلاثة أطفال، تتعامل مع مَن يقيم لديها بعطف الأمهات أكثر مما تتعامل معه بمنطق صاحب المسكن ، وكان الأب أيضًا رجلاً فاضلاً يهتم بالسؤال عن أحوال دراستى ومذاكرتى ، ثم انتهى العام الجامعى . . وحان موعد عودتى لمدينتى فى إجازة الصيف ، فسألتنى ربة الأسرة فى إشفاق :

- ألن ترجع للإقامة لدينا فى العام القادم ؟

فتفاديتُ الإجابة الصريحة ، وتجنبتُ النظر إليها لكيلا تغلبنى دموعى عند الوداع ، وأسرعتُ بمغادرة البيت ، فلقد كنت قد قررت رغم استمتاعى بالإقامة مع هذه الأسرة ، أن أقيم فى عامى التالى ببنسيون قريب من الجامعة لكى أخوض تجربة الحياة الاستقلالية الكاملة ، ولكى أتمتع بحرية استقبال الأصدقاء فى أى وقت بلا حرج . . فأنا إنسان كثير الأصدقاء بطبيعتى ، وقد اعتدت فى صباى أن أستيقظ من نومى خلال الإجازة الصيفية فأجد عددًا من الأصدقاء جالسين فى نفس الغرفة يشربون الشاى ويلعبون الشطرنج ويتبادلون الأحاديث الطلية فى انتظار صحوى ! أما كيف دخلوا ؟ . . فلقد جاءوا يسألون عنى فقيل لكل منهم : تفضل بإيقاظه ! واقتيدوا إلى غرفة نومى ، ولحق بهم الشاى بعد قليل . . ومن حين لآخر راح أحدهم يحاول إيقاظى ، فأتنبه للحظات وأحيى الضيوف ، وربما أتبادل معهم أيضًا كلمات المشاكسة ، ثم أرجع للنوم مرة أخرى ، وهكذا عدة مرات قبل أن أنهض فى النهاية لتناول طعام الإفطار مع الأحباب !

ولهذا فقد وجدتُ صعوبة كبيرة فى احتمال الحياة بلا أهل ولا أصحاب فى بداية انفصالى عن أسرتى ، وتطلعتُ إلى اكتساب صداقات جديدة من بين زملاء الكلية تعوضنى عن أصدقاء الصبا الذين اتجهوا جميعًا لكليات جامعة الإسكندرية الأقرب لمدينتى ، ولم تمض شهور حتى كنت قد اكتسبتُ عدة صداقات جديدة بالفعل ، وبدأ الأصدقاء الجدد يزورونني فى مسكنى وسط هذه الأسرة ، وبدأتُ أستشعر الحرج من ربتها رغم عدم تذمرها من زيارات الأصدقاء ، فرجعتُ مع بداية العام الدراسى التالى وأقمت فى هذا البنسيون مقابل أجر شهرى « باهظ» هو ستة جنيهات كاملة ! وكان جيرانى به طالبًا فلسطينيًّا وآخر جزائريًّا وثالثًا مغربيًّا ورابعًا مصريًّا ! فتوثقت العلاقات بيننا بقدرة الشباب على التآلف السريع مع الآخرين . . وتبادلنا الاحترام والمودة والتضامن فى مطالبنا من صاحب البنسيون بإصلاح سباكة المطبخ والحمام . وكنت قد بدأتُ تدريبى بجريدة الأهرام . . وتفرغتُ له شهور الدراسة الأولى ، ثم اقترب امتحان التيرم الأول فاستأذنت رئيسى فى إجازة لمدة شهر للاستعداد للامتحان ، وبدأ الأصدقاء الجدد يتوافدون على غرفتى بالبنسيون للاستذكار معًا ، ثم حمى وطيس معركة المذاكرة فحمل أكثرهم ملابسه وأقام عندى إقامة دائمة ، وتحولتْ غرفتى بالبنسيون إلى خلية نحل تعمل ٢٤ ساعة كل يوم تتوزع فيها نوبات النوم على الفراش الوحيد بالعدل بين الأصدقاء على مدار اليوم كله ، فينام فيه اثنان فى الهزيع الأخير من الليل ، واثنان فى الظهر ، واثنان فى المساء ، واثنان فى

أول الليل وهكذا . . وفى الأرض بعد ذلك متسع لمن أراد حصة إضافية من النوم ، ولا تسلنى كيف كنا نستطيع الاستغراق فى النوم وإلى جوارنا مَن يذاكرون بصوت عال أو يضحكون من الأعماق على نادرة عابرة ، أو يأكلون ويصخبون بلا حرج من النائمين ، فهذا هو الفارق بين نوم العافية فى مرحلة الشباب ، وبين النوم المضطرب الخاطف والاستيقاظ لأى بادرة إزعاج فى مراحل العمر الأخرى .

وكان وليم أفندى صاحب البنسيون موظفًا بوزارة الزراعة ويعين نفسه وأسرته بهذا العمل الإضافى ، ويتردد على البنسيون من حين لآخر ليتفقّد الأحوال ، فجاء ذات مرة ورأى باب غرفتى مفتوحًا وفى الفراش صديقان مستغرقان فى النوم ، وعلى المكتب ثلاثة يذاكرون باهتمام ، وعلى الكنبة اثنان آخران يقرآن دروسهما . . وفى الفراندة ثلاثة يحتلون باقى مقاعد الغرفة ، وعلى الأرض صديق لم يجد مقعدًا له فافترش «أمنا الأرض » على حد تعبير الفيلسوف الإغريقى القديم ، فتأمل المشهد للحظات باسمًا ثم قال لى : لو حاسبتُك على عدد « الرؤوس » التى تبيت فى هذه الغرفة ، لطالبتك بأضعاف أضعاف ما تدفع من إيجار !
وجاء مرة أخرى فى الصباح وكنا كلنا فى الكلية نؤدى الامتحان ، فوجد ورقة صغيرة معلقة على باب غرفتى تعلن أن : « لوكاندة النوم المريح لصاحبها فلان . . ومديرها فلان . . وفراشها فلان . . وزبائنها فلان وفلان وفلان إلخ ، مغلقة مؤقتًا لظروف أداء الامتحان فى مادة التحرير الصحفى اليوم ، وستفتح اللوكاندة أبوابها من جديد بإذن الله فى الرابعة

مساء لاستقبال الزبائن» ! فقطع الورقة ورجع بها إلى زوجته ضاحكًا ليشهدها على ما يفعل هؤلاء الطلبة الشياطين ! ثم يتندران بهذه الورقة بعد ذلك طويلا .

وقد اختص الصديق الذى كتب هذا الإعلان نفسه بوظيفة «الفراش»، لأنه كان أكثرنا سماحة نفس وأسرعنا فى الاستجابة لطلبات الأحباب من الشاى والقهوة ، فينهض لصنعها فى المطبخ مُسلمًا أمره لله، ولاعنًا اليوم الذى أصبح فيه « خادمًا لأبينا » !

أما صاحب المحل الذى وجدتُ بابه مغلقًا وأملتُ أن يكون مازال يواصل عمله ، فلقد كان بقالاً صغيرًا يضيف إلى بقالته بيع الفول والطعمية فى الصباح فقط ، وكان فى الأيام العادية يعد لى سندوتشات الفول والطعمية الساخنة ويلفها فى غلاف محكم ، ثم يلقى بها إلى الفراندة فتصطدم ببابها الخشبى . . ويتبعها بصيحة واحدة لا تتكرر مرتين وهى : يا فلان افندى . . اصح ! ثم يرجع فى هدوء إلى محله ، وأصحو أنا لا على صوته ، ولكن على صوت ارتطام « القنبلة » التى يقذف باب غرفتى بها كل صباح ، ويواظب على ذلك كل يوم بانتظام ولا يحاسبنى عما « قذفنى » به إلا فى أول الشهر ، أما فى موسم الامتحان وازدهار نشاط لوكاندة النوم المريح ، فلقد كان يضطر للخروج على عادته والمجىء إلى البنسيون فى الصباح حاملاً « حَلَّة » كبيرة من الفول وكمية ضخمة من الطعمية . . ولوحًا من الجريد فوقه ٣٠ رغيفًا من الخبز .

أما طعام الغداء فلقد كان يجيئنا به بعد إغلاق هذا الرجل لمحله فى الأصيل صبى صغير رأيته يلعب فى الشارع أمام العمارة . . ويبدو كالمتشردين ، فأغريته بالعمل بالبنسيون بدلاً من التشرد فى الشوارع واستجداء المارة ، واقتنع بالفكرة ، فعينته « فَرّاشًا » فى البنسيون بأجر شهرى كبير قدره جنيهٍ واحد ! واستأذنتُ وليم أفندى فى ذلك ، فأذن به بشرط أن أتحمل أنا « مرتبه الكبير » لأن ميزانية البنسيون لا تحتمل أية مرتبات للخدمة ، وسعد هذا الصبى بعمله الجديد ، وسعدنا نحن أيضًا به ، وانهالت عليه قروش الأصدقاء وبقشيشهم ، وتشجيعهم له على العمل الشريف بدلاً من مصاحبة المتشردين وتعلم سلوكياتهم المنحرفة ، وكان قد « تعلم » بالفعل تدخين السجائر فنهيته عنها بشدة ، واستجاب لرغبتى ، وتحول إلى شخص آخر ، خصوصًا بعد إرغامه على دخول الحمام ، فبدا فى صورة جديدة ، وتحسن مظهره وصحته وطريقته فى الكلام والسلوك بفضل صحبته لهؤلاء الأفندية من طلبة الجامعة الذين علموه كيف يتحدث وكيف يتصرف فى المواقف المختلفة . وقد استمر هذا الصبى فى عمله بالبنسيون حتى بعد مغادرتى له وانتقالى إلى مسكن خاص بى بالمنيل ، وواظب عدة سنوات بعد ذلك على زيارتى بالمنيل فى أيام الجُمَع لقضاء بعض مطالبى ، وكلما جاءنى سألنى عن أصدقاء الزمن القديم : فلان أفندى . . وفلان أفندى . . إلخ ، حتى غادرتُ حى المنيل كله وانقطعت الصلات بيننا ، فترى ماذا فعلت به الأيام ؟

لقد كاد هذا الصبى الصغير أن يحدث « فتنة » بيننا وبين أحد

أصدقائنا من زبائن لوكاندة النوم المريح من حيث لا يدرى ولا يحتسب ، فلقد كان من بين هؤلاء الأصدقاء صديق معروف بيننا بحبه للنوم لفترات طويلة واستمتاعه بالكسل وقلة الحركة وضيقه بأى أمر أو طارىء يدعوه للنهوض من مجلسه ، ويصبر على الجوع أو العطش حتى يجيئه مَن يكفيه مئونة الحركة وينهض بدلاً منه لإحضار ما يحتاج إليه ، حتى أطلقنا عليه لقب « التمبل » . . وكانت روحه مطمئنة دائماً للحياة وللمستقبل وواثقة من الغد ، ولا يرى داعيًا للانزعاج لأى شىء أو للقلق على المستقبل أو الطموح المهنى ، لأن كل شىء على ما يرام ، وسوف يجىء كل شىء فى موعده ، فلعله كان فى ذلك من أنصار الفيلسوف الألمانى المتفائل ليبنتز الذى كان يقول : « كل شىء على ما يرام . . وهذا العالم هو أفضل عالم يحتمل أن يكون موجودًا فى الكون » مع أنه لم يكن قد سمع باسم ليبنتز ولا بفلسفته فى التفاؤل ، كما كانت له «قيلولة» يومية يحرص عليها فى كل الأوقات ، وتمتد من الرابعة مساء إلى أن نوقظه نحن منها « بالطبل البلدى » فى الثامنة مساء ! وقد صحا ذات مرة من قيلولته بعد جهد جهيد ففتح عينيه فى تراخ . . وتلفت حوله ثم قال لى فى « حنين » عجيب :

- يا سلام يا فلان لو أحلنا إلى المعاش . . واستمتعنا بالنوم طول النهار !

فيا إله السموات أن يحلم شاب بالإحالة للمعاش ونحن لم نبلغ بعد سن العشرين ، بل ولم نعيّن أصلاً فى وظائف رسمية لكى نحال منها

للمعاش عند الستين ، وإنما نتدرب فى الصحف بالمكافأة وبلا عقود للعمل . . فهل ترانا قد خالفنا منطق الأشياء حين أطلقنا عليه لقب التمبل؟

وهل جاوز هذا الصبى الصغير الحقيقة حين جاءنا ذات يوم – بعد أن سمع هذه الكلمة تتردد على ألسنتنا مرارًا للإشارة إلى هذا الصديق– فقال لنا أمامه إن بواب العمارة يرغب فى التحدث إلى فلان أفندى التمبل؟

لقد ضحكنا من أعماقنا للمفارقة وغضب لها صديقنا بشدة ، وتصور أننا قد أهنّاه وجرأنا عليه هذا الصبى الصغير ، ولم يصدق إلا بعد جهد جهيد أن الصبى يتصور فعلاً أن كلمة التمبل هى لقب عائلته وليست سبابًا ولا تجريحًا ! وانتهت الأزمة بعد عناء كبير ، وبعد أن نبهنا على الصبى بألا يعود إلى تكرار هذه الكلمة ، فإذا سألتنى ماذا حقق هذا الصديق فى حياته وهو الذى كان يحلم بالإحالة للمعاش فى سن العشرين ، لأجبتك بأنه – على خلاف ما تتوقع – قد حقق بذكائه واجتهاده فى حياته العملية نجاحًا كبيرًا ، لكنه حقق ما حققه بالنفسَ الهادىء غير المهرول ولا المتعجل للأهداف ، وبالثقة المطمئنة إلى الغد ، والقدرة على الاستمتاع بالأشياء فى الوقت نفسه ، وهذا هو الفارق بينه وبين غيره من زملاء رحلة العمر !

وعلى هذا المنوال عشتُ عامًا كاملاً فى هذا البنسيون الذى لم أجد

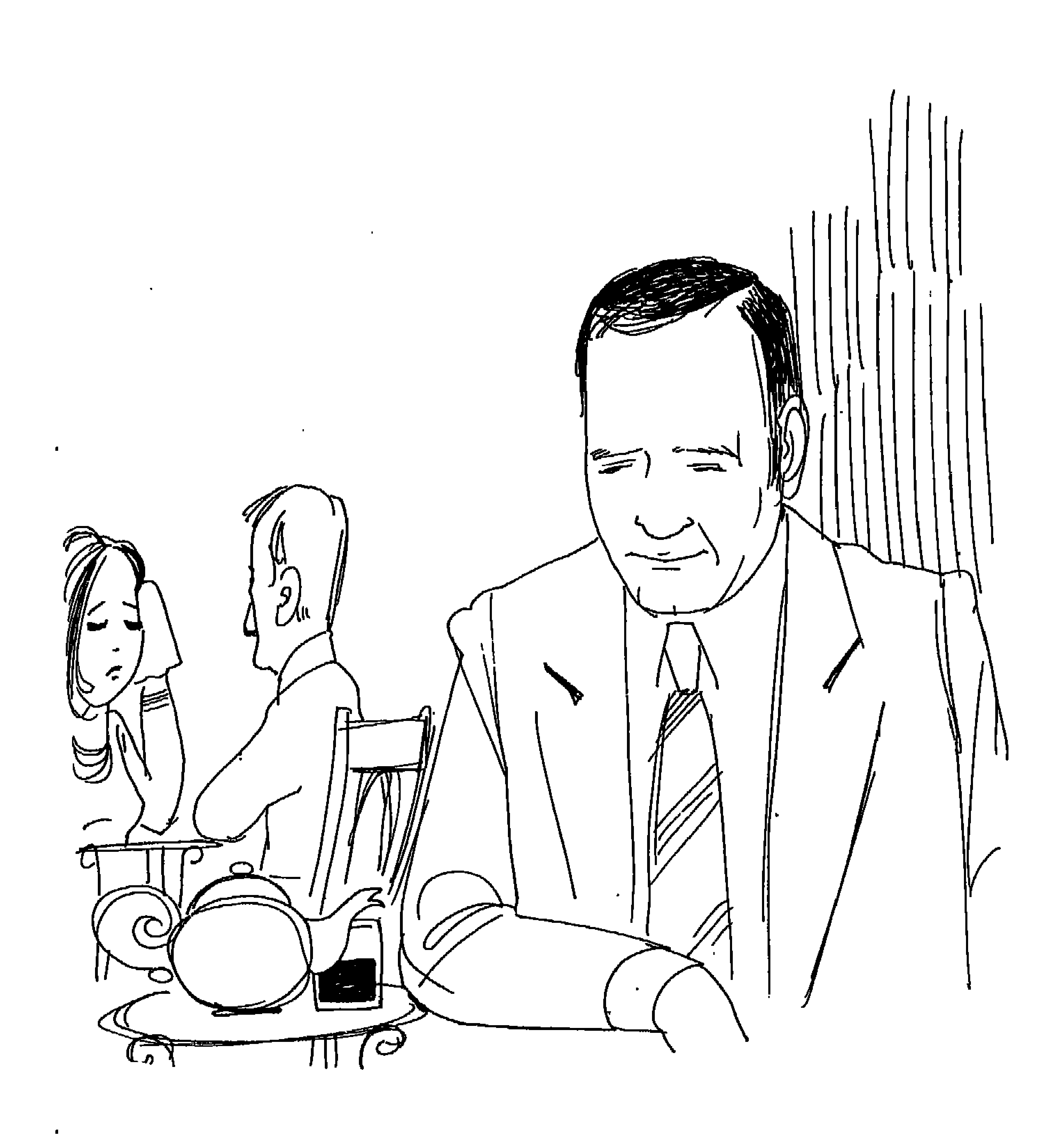
الفرصة – للأسف – لأعرف هل مازال مفتوحًا للنزلاء ، أم تحول صاحبه عن مشروعه التجارى منذ زمن طويل ؟

وحين رجعتُ إلى سيارتى بعد أن طفتُ طوافى الممتع بموطن الذكريات وجدتنى أقول لنفسى : إن السعادة كانت تقيم بين ظهرانينا ونحن نتكدس فى غرفتى الضيقة بهذا البنسيون حتى لا يجد الإنسان أحيانًا مكانًا يمد فيه ساقيه ويستريح !

وتذكرتُ الحكمة البوذية القديمة التى تقول : « إن لكل إنسان منا شمسين . . واحدة فى السماء . . وواحدة فى داخله » وإنه حين تغيب شمس السماء ويظلم الكون فلا يضىء للإنسان حياته إلا شمسه الداخلية ، وإنه لهذا السبب فلا بد أن يحتفظ الإنسان بها متوهجة دائمًا بالأمل فى الغد . . وبالرضا عن الحياة ، وبالقدرة على تجديدها وتجديد الأهداف فى كل مرحلة من مراحل العمر ، وبالاستمتاع بالعلاقات الإنسانية ، وأنس الصحبة الصافية ، والود الصادق ، والابتهاج بأتفه الأشياء . . وتذوق الجمال فى كل شىء .

لقد كانت « شموسنا الداخلية » فى ذلك الزمان السعيد ساطعة دائمًا ومتوهجة أبدًا بالأمل فى الغد رغم كل الصعوبات . .

فإياك ياصديقى أن تطفىء هذه الشمس الداخلية داخلك ، وإلا خيَّم الظلام على حياتك وأطبق اليأس والإحباط عليك من كل جانب ، فتفقد القدرة على تذوق الحياة . . بل عن تحملها !



ذكرى ليلة صيف

كانت بحق ليلة لا تنسى !

فلا عجب إذن أنى لم أنسها حتى الآن ، ولم ينسها طرفاها الأساسيان .. وما أظنهما سوف ينسيانها إلى نهاية العمر .

ففى أوائل السبعينيات كنت أقضى سهراتى فى مقهى سوق الحميدية بباب اللوق . . فأتوجه إليه كل ليلة عقب انتهاء عملى بالأهرام ، وأجد دائمًا شلة الأصدقاء فى الانتظار . . فأقضى معهم بضع ساعات ، أستريح خلالها من عناء العمل ، وأشعر بالألفة والإيناس بينهم ، فإذا نهضتُ لمغادرة المكان والعودة إلى البيت تحكمتْ المقادير وسيارتى الصغيرة البالية فى الموعد الذى أهجع فيه إلى فراشى ، فقد تكون ليلة سعيدة فأدير المفتاح فى موتور السيارة ، فيستجيب على الفور ، وأنطلق بها عائدًا إلى بيتى . . وقد « يعصلج » الموتور فى الدوران ، فأحتاج إلى وقت طويل لإدارة السيارة وتحريكها ، وقد يتطلب الأمر فى بعض الأحيان طلب المساعدة من ميكانيكى السيارات القريب . . أو محل الإطارات المجاور له لتبديل أحد إطارات السيارة ، وقد يغلب اليأس على الجميع . . وأسلِّم مفتاح السيارة للمنادى وأنقده خمسين قرشًا لكى يتولى حراستها فى الليل إلى أن يطلع الصباح ، ويقوم الجرسون الصديق بالإشراف على إصلاحها ، وأستقل أنا سيارة أجرة إلى بيتى . ولست أدرى حتى الآن أى شىء بالتحديد كنت أطلب « حراسة » هذه السيارة البالية منه ، وليس فيها ما يغرى أحدًا بسرقته ؟ لكنه إحساس الإنسان المُغالَى فيه دائمًا بقيمة ما يملكه من أشياء حتى لو كانت لا تعنى للآخرين شيئًا .

وفى تلك الليلة دخلتُ إلى المقهى قرب العاشرة مساءً مبكرًا بعض الشىء عن موعدى المعتاد ، فلم أجد أحدًا من أفراد الشلة ، ووجدتُ

صديقًا قديمًا يجلس إلى مائدة جانبية مع خطيبته ـ وهى زميلته أيضًا فى العمل ـ ولاحظتُ للوهلة الأولى أن فى الجو غيومًا تخيم على سماء الخطيبين المرتبطين بعلاقة حميمة منذ أكثر من عامين ويغالبان ظروفهما، ويأملان فى تتويج إرتباطهما بالزواج ذات يوم قريب ! وتوقعتُ أن يكونا فى حاجة إلى انفرادهما بنفسيهما فى هذه الظروف ، فحييتهما واتجهتُ إلى مائدة بعيدة ، لكن صوت الصديق لاحقنى داعيًا إياى لمشاركتهما الجلسة ، وشاركتْهُ خطيبته الدعوة بإلحاح . . فاتجهتُ إليهما متوجسًا ، ولمحتُ أثر الدموع فى عينى الخطيبة الواجمة ، ومضت دقائق كان الصديق خلالها مستغرقًا فى التفكير والوجوم ، ثم بدا لى وكأنه قد ضاق بشجونه وأفكاره ورغب فى حسم ما يشغله من أمور ، فقال لى فجأة متجهمًا :

– فلان ! . . أنا وفلانة نريد أن نتزوج !

فلم أفاجا بهذه الرغبة ، وأنا أعلم أن كلاً منهما قد اختار الآخر ، وينتظران تحسن الأحوال المادية لكى يتوجا حبهما بالزواج .

فلم أجد ما أقوله سوى : وما الجديد فى ذلك ؟

فأجابنى فى هدوء : نريد أن نتزوج الآن !

فسألته مستوثقًا : الآن . . الآن ؟

فأجابنى بالإيجاب . . وأدرتُ عينى إلى الخطيبة فرأيت علامات الارتياح تتسلل إلى وجهها لأول مرة ، وأدركتُ على الفور أنهما كانا

يتجادلان حول مستقبلهما ، وأنها قد ضاقت بالانتظار الطويل لتحسن الأحوال بلا جدوى . . وبدأت تتشكك فى جدية سعى رفيقها لإتمام المشروع . . وصارحتْهُ بشكوكها ، فأراد حسم الظنون بالإقدام على الخطوة الإيجابية التى لا تدع مجالاً لأى شك ، وتصورتُ كذلك أنهما كشابين مكافحين قد أدركا بعد طول عناء أن الانتظار الطويل إن لم يُحْسَم بعمل إيجابى فقد يؤدى إلى تميع العلاقة . . والاستسلام للظروف القاسية ، واليأس من إتمام الزواج ذات يوم قريب . .

جال كل ذلك فى خاطرى ، فوجدتنى - ولا أعرف حتى الآن كيف - أتعامل مع ما أبداه لى الصديق من رغبة بواقعية شديدة وهدوء أشد ، وكأنما لم يعرب لى سوى عن رغبته فى أن أدعوه إلى فنجان من القهوة!

ولم أنطق بكلمة أخرى ، وإنما استأذنتهما فى الغياب لحظة ، ونهضتُ إلى تليفون المقهى وطلبت صديقًا من أفراد الشلة يقيم بشارع قصر العينى القريب ، ورجوتُهُ مغادرة بيته وانتظارى على الرصيف المقابل له لأنى سأمر عليه لاصطحابه فى مشوار عاجل بعد عشر دقائق، ورجعتُ إلى الصديقين فأكملتُ احتساء فنجان القهوة ثم دعوتهما إلى النهوض ، واتجهنا إلى السيارة ، وقُدْتُها إلى شارع قصر العينى حيث وجدتُ الصديق فى انتظارى . . فدعوته إلى الركوب ، فركب وهو يدير عينيه حوله فى اندهاش ظاهر ، يحاول أن يفهم ما يجرى حوله بلا جدوى ، ولم أشف غليل دهشته وفضوله . . وإنما طلبتُ منه الانتظار ولسوف يفهم

كل شيء فى حينه . . ثم قدتُ السيارة إلى حى عابدين وتجولتُ بها فى الشوارع وأنا أقرأ لافتات المكاتب المعلقة على المنازل ، إلى أن توقفتُ أمام إحداها . . ودعوتُ الجميع إلى النزول .

وصعدنا السلم إلى غرفة مكتب بسيطة فى الدور الأول . . ووجدنا فى انتظارنا شيخًا متوسط العمر يجلس إلى مكتب خشبى متواضع . . رد تحيتنا ببشاشة ، ودعانا إلى الجلوس ، ثم تساءل مبتسمًا : زواج إن شاء الله أم طلاق لاقدر الله ؟

فأسرعتُ أجيبه بأنه زواج إن شاء الله . . !

وقدمتُ إليه بطاقتى الشخصية ، وقدم الآخرون بطاقاتهم ، فانشغل بعض الوقت بتسجيل البيانات ، ودعا العروسين إلى التوقيع على الوثيقة . . ودعانا نحن للتوقيع عليها كشاهدين ، ثم التفتَ إلى العروسين باسمًا ، وطلب منهما أن يمسك كل منهما يد الآخر . . ووضع منديله فوق يديهما ، وبدأ بقراءة الصيغة الشرعية للزواج ، ابتداء من حمد الله جل شأنه وشكره على أن خلق لنا من أنفسنا أزواجًا لنسكن إليها ، إلى الثناء على رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، الذى هدانا إلى الخير ، وقال لنا ما معناه : خيركم . . خيركم لأهله . . وأنا خير الناس لأهلى (والأهل هنا هى الزوجة وشريكة الحياة) . . حتى بلغ الإشارة الى اتمام هذا العقد على سنة الله ورسوله ، وعلى مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه . وختامًا بدعوتنا جميعًا إلى رفع الأيدى وقراءة الفاتحة والدعاء للعروسين بالتوفيق فى حياتهما المقبلة بإذن الله .

وشاركتُ فى كل هذه المراسم وجسمى يقشعر بجلال الموقف ، ورهبة المناسبة التى تجمع بين حبيبين على إرادة السعادة ، فى ظلال طاعة الله سبحانه وتعالى ورسوله ، ومشاعرى تتراوح بين الابتهاج بنشوه هذه المناسبة والمساعدة على تحقيقها ، والإحساس الغامض بالشجن والرغبة الخفية فى البكاء بلا سبب واضح . أما العروس فلقد أراحت نفسها من عناء كبت المشاعر ومئونه التحفظ التى تكبدتُها أنا ، وأطلقت العنان لدموعها لتسيل على وجهها الباسم حتى رقت لها قلوبنا جميعًا ، وكنت أعرف من ظروفها أنها فتاة طيبة يتيمة الأب تعيش مع والدتها ، وتحلم بالسعادة والاستقرار والعيش فى هدوء إلى جوار من أحبه قلبها بصدق . . فازددتُ إشفاقًا عليها وأملاً لها فى أن تهبها الحياة كل ما ترجوه لنفسها . وانتهت المراسم ، وجاء وقت « الحساب » ، فسألنا الشيخ الطيب عن أتعابه ، فإذا به يقول لنا ببساطة : خمسة جنيهات فقط !

وكان هذا المبلغ وقتها هو الأتعاب الشائعة فى أوساط البسطاء لعقد القران ، أو لعل الرجل قد أدرك الظروف المحيطة بشابين يجيئان إليه بلا أهل سوى صديقين لهما فى مكتبه بعد العاشرة مساء ليعقدا قرانهما عنده وليس فى بيت الأسرة ، فأراد التخفيف عنهما مراعاة لواقع الحال .

وانصرفنا من مكتبه والعروس لم تجف دموعها بعد . . ودعوتُ الجميع إلى الاحتفال بالمناسبة السعيدة ، لكنها اعتذرت وفضلتِ التوجه إلى البيت مباشرة مع خطيبها أو زوجها لكى تبلغ والدتها بالخبر السعيد ، وتطمئنها إلى أن سفينتها قد استقرت فى النهاية فى مرفأ الزواج والأمان .

وفارقنا العروسين عند بيت الأم ، ورجعنا إلى المقهى أنا وصديقى الذى لم تفارقه الدهشة طوال الوقت منذ ركب السيارة حتى ودعنا العروسين ، ومن حين لآخر يميل إلىّ ويسألنى هامسًا : إيه الحكاية؟ . . فلا أجيبه سوى بدعوته إلى الصبر والانتظار ، إلى أن خلونا بنفسينا فى السيارة عقب انصراف العروسين ، ورويتُ له « الحكاية » من البداية وأشبعتُ فضوله بتفاصيلها ، وذهبنا إلى المقهى سعيديْن بما مكننا الله سبحانه وتعالى من القيام به لتتويج حب هذين الشابين بالزواج .

أما العروسان فلقد تغلبا على المشكلات التى كانت تبدو لهما ـ قبل الإقدام على هذه الخطوة الجريئة كالجبال الشاهقة ـ خلال عام أو عامين ، وتمكنا من إنشاء عشهما الصغير بعد رحلة كفاح مجيدة . . وأما السنوات فقد مضت بعد ذلك . . وما كان يبدو للعريس المتردد أنه مستحيل الوقوع قبل البداية ، تحقق له بعد اقتحام المشكلة بالإرادة والكفاح والتعاون بين حبيبين اختار كل منهما الآخر ، واحتمى به فى وجه مصاعب الحياة . وأما عشرتهما فلقد دامت واستقرت وأثمرت أجمل الثمار ، وتجاوز العريس كل الصعاب وتقدم فى حياته العملية وشغل المناصب المرموقة فى مجاله ، وقدم مع شريكته للحياة أبناءً نشأوا فى بيت عامر بالحب والإخلاص والوفاء ، وأما أنا فلقد باعَدَتْ مشاغل الحياة بينى وبين هذا الصديق فلم نعد نلتقى إلا لمُامًا . . لكننا ما أن نلتقى حتى يشعر كل منا بأنه فى حضرة صديق حميم يأنس إليه ويفتح له قلبه ويشعر معه بزوال كل الحواجز والفواصل . وما من مرة التقيتُ به فيها أو

سمعت صوته عبر التليفون إلا وذكرنى بأننى « عمه » الذى زَوَّجَهُ من شريكة حياته ، بالرغم من أنه يماثلنى فى العمر ، وإلا وكرر علىَّ القول إنه مدين لى بسعادته فى حياته العائلية مع شريكته الطيبة العطوف ، لغير شىء سوى أننى قد تعاملتُ بواقعية وجدِّية غريبة ـ كما يقول ـ مع الفكرة « المجنونة » التى طرأتْ عليه فجأة تلك الليلة فى المقهى ، وأراد بها أن يطمئن فتاته إلى صدق رغبته فيها وتمسكه بها بعد أن ضاقت بطول الصبر والانتظار وهواجس الخوف من المجهول ، ولولا ذلك ـ كما يقول ـ لربما كانت سنوات أخرى ثمينة من العمر قد ضاعت قبل أن يجد فى نفسه الشجاعة للإقدام على هذه الخطوة التى لم تكن تؤهله ظروفه وقتها لها ، ولربما أيضًا كانت فتاته قد يئست منه ، وتشككتْ فى جديته وإخلاصه . . واتجهتْ إلى طريق آخر بعيد عنه ، لكن رُبَّ « جنون » قد يكون فى بعض الأحيان أكثر حكمة من التحسب الشديد للأشياء الذى يغل الإرادة ويمنع الفعل ! . . ورُب فكرة « طارئة » تكون فى بعض الأحيان أفضل من كثرة التردد والتدبير وطول الأناة !

أو هذا على الأقل هو ما أكدتْهُ التجربة التى كنتُ شاهدًا عليها لهذا الصديق .

فما رأيك أنت ؟

«فَكِّيت» الجنيه ؟!

كنتُ صحفيًا شابًّا في بداية العشرينيات من عمرى ، وقد سافرت إلى الإسكندرية في الشتاء لأقضى بها - كعادتى فى ذلك الحين - بضعة أيام مع أصدقاء الطفولة الذين فرّقت بينى وبينهم الدراسة الجامعية ؛ فالتحقوا هم بكليات جامعة الإسكندرية القريبة من مدينتنا بالوجه البحرى ، و « هاجرتُ » أنا وحيدًا إلى القاهرة لألتحق بكلية الآداب ؛ لأنها كانت الوحيدة التى تدرّس الصحافة فى أحد أقسامها فى ذلك الوقت .

وكان الأصدقاء فى ذلك الصباح الشتائى المنعش فى أعمالهم ، فخرجتُ وحيدًا أتجول فى منطقة « محطة الرمل » وأتسكع أمام أكشاك الكتب والصحف .. ثم ركبتُ ترام الإسكندرية الشهير عائدًا إلى بيت الصديق الذى نزلتُ ضيفًا عليه ، وجاءنى « الكمسارى » ، فأخرجتُ جنيهًا وقدمته له ، فاعتذر لعدم وجود « فكة » معه ، وطلب قرشين ـ هما أجرة الركوب بالدرجة الأولى من الترام فى ذلك الوقت ـ واعتذرتُ أنا بدورى بأننى لا أحمل أية فكة .. فأصبحتْ أزمة ! وتجادل الكمسارى معى ، وتجادلتُ معه ، وشاركَنا بعض الركاب فى البحث عن حل للمشكلة .. فقام أحدهم بفك الجنيه إلى ورقتين من فئة الخمسين قرشًا ، وتطوع آخر بفك ورقة منهما ، وقدمتُ للكمسارى ثمن التذكرة ، وحُلت الأزمة فى النهاية .. ثم انتهت إجازتى بين أصدقائى ، ورجعتُ إلى عملى الصحفى بالقاهرة .. وبعد أسبوع من عودتى كنت أُجرى تحقيقًا صحفيًّا عن القضاء .. واحتجتُ إلى مقابلة وزير العدل ـ وهو وقتها المستشار عصام الدين حسونة ـ وكنتُ قد التقيتُ به قبلها عدة مرات وهو محافظ لبنى سويف ، وأجريتُ معه عدة تحقيقات صحفية . فاتصلت بمكتبه وطلبت موعدًا معه.. وتحددت المقابلة فى التاسعة صباحًا بمكتبه فى الوزارة ، وتوجهتُ إليه فى الموعد المحدد .. فما إن دخلتُ عليه حتى بادرنى بسؤال عجيب وغير متوقع .. هو :

ـ فَكِّيت الجنيه ؟

وأُرْتِجَ علىَّ الأمر ، فلم أفهم السؤال .. ونظرتُ إليه مندهشًا .. فإذا بـه يستغـرق فى الضحـك ، فجمعـتُ شتـات نفسى وسألته : أى جنيه يا سيادة الوزير ؟ فأجاب وهو لا يزال يضحك : جنيه الترام فى الإسكندرية لكى تدفع ثمن التذكرة !

وتذكرتُ الواقعة .. وضحكتُ لها وتعجبت : كيف علم بأمرها؟!.. وقبل أن أسأله عن ذلك كان قد أخبرنى أنه كان راكبًا الترام نفسه ، ورآنى ، وتابع الجدال بينى وبين الكمسارى بشغف واهتمام ، إلى أن تطوع الركاب بحل الأزمة .. وروى لى أنه قد همّ بأن يعرض علىَّ إقراضى قرشين لدفع ثمن التذكرة على أن أردهما إليه حين ميسرة ! فما إن فكر فى ذلك حتى كانت الأزمة قد انتهت بسلام ، فأعاد القرشين إلى جيبه والتزم الصمت !

وضحكنا للقصة طويلاً .. وسألتُه عن موقعه فى عربة الترام طوال هذه المجادلة ، وتعجبت : كيف غابت عنى رؤيته خلال ذلك ؟.. ثم انتقلنا إلى الموضوع الذى ذهبت إليه من أجله .. وسجلتُ آراءه فيه ، ونشرت التحقيق ،فما من مرة لقيته فيها بعد ذلك فى مكتبه بالوزارة أو فى حفل عام كان مدعوًّا إليه إلا وبادرنى ضاحكًا بالسؤال نفسه أمام كبار رجال القضاء : فكّيت الجنيه ؟.. ثم استمتع بارتباكى وتعثرى فى

الإجابة عن أسئلة معاونيه من كبار المستشارين عن حكاية هذا «الجنيه» الذى يشغل وزير العدل !

أما لماذا تذكرتُ هذه القصة القديمة فجأة .. فلأننى كنت قبل أيام أتناقش مع أحد الأصدقاء حول الكبار والصغار فى المناصب العليا .. وأروى له بعض ذكرياتى الصحفية عمن عرفتهم من « الكبار » فى مناصبهم ،وبعد مغادرتهم هذه المناصب ، وعن « الصغار » الذين كانوا كذلك وهم فى مناصبهم الرفيعة ، وازدادوا صغرًا وضآلة بعد أن غادروها .. ولقد كان المستشار عصام الدين حسونة واحدًا من هؤلاء الكبار فى مناصبهم .. وفى خارجها ، ومن هنا تذكرتُ قصتى معه .

فأما أول مَن لفت نظرى إلى هذا الفرق الجوهرى بين الكبار والصغار ، فلقد كان الإمام محمد عبده الذى قال ذات يوم : الرجل الكبير يرى نفسه أكبر من منصبه ، فلا يهلع حين يغادره .. والرجل الصغير يرى منصبه أكبر منه ، فيهلع حين يغادره !

ولأننى قد بدأتُ العمل الصحفى فى سن السابعة عشرة ، فلقد تمرستُ فى سن مبكرة على التعامل مع شاغلى المناصب العليا ، فرأيتُ فيهم من ينطبق عليه قول الإمام محمد عبده ، ويُعدون من الكبار حقًّا وصدقًا ، سواء بقوا فى مناصبهم أو غادروها .. ورأيتُ منهم كذلك من لا قيمة حقيقية لهم كبشر وأشخاص ، سواء بقوا فى مناصبهم .. أو

غادروها ! ومن عجب أننى لمستُ فى هذا النوع الأخير بالذات كل أمراض السلطة ، من الاستعلاء والغطرسة ، والتسلط ، والاعتداد الكاذب بالنفس إلى حد الغرور ، والاستهانة بأقدار الآخرين .. فلا عجب إذن فى أن سمح لى العمر بأن أرى فى كثيرين منهم برهانَ ربى وتَذْكِرتَه ممن ينسون أنفسهم وهم فى غرور القوة والتسلط ! ولا عجب فى أن يكون هؤلاء بالذات هم أكثر الناس هلعًا حين يفقدون مناصبهم.. ولا فى أن ينهال عليهم تراب النسيان بمجرد مغادرتهم مناصبهم، وقد كان كل منهم يظن نفسه نجماً ساطعًا فى سماء الزمان !

ولا عجب كذلك أن يذكرنى بعضهم ببيت الشعر القديم للشاعر محمد الأسمر الذى يقول فيه :

وأحسنُ من نَيْلِ الوَزارة للفتى

حياةٌ تُرِيـه مَصـارِعَ الـوزراءِ !

أىْ تغيُّر الأحوال ببعضهم ، وصعود البعض وهبوطه ، وانفضاض الدنيا من حول مَنْ لم يَرْعَ الحق والعدل ، ونسى نفسه ، وتملكه الغرور والكبرياء فى حال إقبال الدنيا عليه ..

فإذا كنتُ قد تذكرت فى حديثى مع هذا الصديق واحدًا من هؤلاء الكبار ـ وقد عرفتُ منهم عددًا لا بأس به كانوا كبارًا بحق وهم فى

مناصبهم الرفيعة ، وظلوا كذلك بعد أن غادروها ـ فمن حقك عليَّ أن أروى لك كذلك تجربة لى مع واحد من النوع الآخر .. وقد عرفتُ منهم خلال رحلة عملى الصحفى أيضًا عددًا آخر لا بأس به !

أما هذا المسئول الذى أحدثك عنه فقد تولى إحدى وزارات الخدمات التى يَفرضُ علىَّ إشرافى على « بريد الأهرام » التعامل مع وزرائها لحل مشكلات قراء البريد لديهم، وقد خَلَفَ فى منصبه وزيرًا كان من الكبار بحق ، وتعاون معى طوال فترة عمله بالوزارة بإخلاص فى حل مشكلات المواطنين ، وبادر بالاستجابة لحل كل مشكلة نُشِرَتْ فى بريد الأهرام تدخل فى دائرة اختصاصه ، وخصص موظفًا بمكتبه لتلقى أصول الشكاوى المنشورة ومتابعة حلها ، ولاحقنى بالردود والإيضاحات على ما يُنشر بالبريد طوال عهده من آراء وتعليقات على أداء الأجهزة التابعة لوزارته ..

وكثيرًا ما أيقظنى من نومى فى الثامنة صباحًا بتليفون منه مُعاتبًا على رسالة نشرت بالبريد يرى فيها افتئاتًا على وزارته ، أو تتطلب إيضاحًا لا يعرفه كاتب الرسالة .. فأعتذر له بأن بريد الأهرام ينشر رسائله على مسئولية كاتبيها ، وأرحب بأى رد يطلب نشره على ما جاء فيه .. فلا يدعنى لأتمالك نفسى لحظات ، وأنا شبه نائم تقريبًا ، وإنما يشرح لى وجهة نظره ويطلب منى صياغتها فى رد ينشر باسمه .. فأسجل نقاط

حديثه على غلاف أى كتاب من الكتب الموضوعة إلى جوار فراشى ، وأضع السماعة شاكرًا ، ثم أستغرق فى النوم لساعة أو أكثر قبل أن أنهض لأداء عملى ، وأصوغ النقاط التى أملاها علىّ وأنا أخشى أن يكون قد فاتنى منها الكثير وأنا شبه نائم ، ثم أنشرها وأنا متوجس من ذلك .. فلا يكاد « الأهرام » ينزل إلى السوق حتى يتصل بى فى موعده المفضل (!) ليهنئنى على « دقة » صياغتى لرده وأفكاره .. ثم غادر هذا الرجل الكبير منصبه الذى لا يدوم لأحد ، ولو كان كذلك لما وصل إليه .. وجاء ذلك المسئول .. فلاحظتُ أنه قد مضت شهور على تعيينه دون أن أتلقى منه أو من مكتبه أى رد على ما ينشر فى « بريد الأهرام » ولا أية استجابة لحل أية مشكلة من مشكلات القراء المنشورة بالبريد ، لا منه ، ولا من مكتبه أو إدارة العلاقات العامة بوزارته ، كما كان الحال فى عهد سلفه .. وكلها مشكلات حيوية لا تحتمل الانتظار .. وناقشتُ «مندوب الأهرام » فى تلك الوزارة فى ذلك وأبديتُ له عجبى من عدم اهتمام ذلك الوزير بالرد على ما يثار حول وزارته ، أو بتقديم أية استجابة لصرخات المواطنين فى البريد .. فقال لى المندوب : إنه شخص متجهّم متغطرس ، لا يقابل أحدًا .. ولا يستجيب لمكالمة أحد، وليس لديه أى حسّ سياسى يُشعره بأهمية التجاوب مع نبض الرأى العام ، والرد على تساؤلاته .. ونصحنى الزميل بأن أتجه إلى وكلاء الوزارة

والمديرين المختصين مباشرة لحل مشكلات القراء ، وتعجبتُ لذلك كثيرًا وعملتُ بنصيحة الزميل ، وركزتُ اتصالاتى مع المديرين المسئولين بوزارته لحل مشكلات القراء .

ومضى عامان طويلان على هذا الحال ، ثم نشر أحد أصدقاء بريد الأهرام رسالة يدعو فيها إلى تنظيم حملة تبرعات لمصلحة مشروع خيرى كبير تشرف وزارة هذا الوزير عليه ، ونُشِرَت الرسالة ، ففوجئتُ برد من الوزير مرسل إلىَّ مع مندوب يُحيِّى فيه كاتب الرسالة ويشجِّع هذه الحملة .. ونشرتُ الرد ، ونظمنا الحملة، وجمعنا مبلغًا كبيرًا من التبرعات لمصلحة هذا المشروع ، واستصدرتُ شيكًا من الإدارة المالية بالأهرام بقيمة المبلغ ، ولم يتبق سوى إرساله إلى السيد الوزير المشرف على المشروع .. وبالرغم من نفورى مما كنتُ قد سمعتُ عنه .. فقد رأيت أن « شرف مكانه » يفرض علىَّ ألا أرسل إليه الشيك مع مندوب من « بريد الأهرام » ، وأن أتوجه لمقابلته وتقديم الشيك إليه ، والحصول على توقيعه على الإيصال الخاص بذلك .. وطلبتُ من الصديق كاتب الرسالة الذى بدأ هذه الحملة ـ وكان يعرفه شخصيًا ـ تحديد موعد لى معه لأسلمه الشيك .. واتصل بى الصديق بعد نصف ساعة مبتهجًا وأبلغنى أن الوزير قد رحب بمقابلتنا معًا ، وحدد الموعد فى العاشرة من مساء غد فى قاعة ألف ليلة وليلة بفندق هيلتون النيل ،

حيث سيكون الوزير هناك لحضور حفل ساهر تقيمه هيئة تابعة لوزارته ، وزفَّ إلىَّ الصديق متهللًا البشرى السعيدة ، وهى أننا سوف نجلس إلى مائدة الوزير خلال الحفل .. وعندها أقدم إليه الشيك و«أستمضيه » على إيصال الاستلام، وأنصرفُ مشكورًا أو أبقى إذا أردتُ !

وترقب الصديق ابتهاجى بهذا الشرف الكبير .. فصُدِم بوجومى للحظات فى البداية ، ثم فوجىء بانفعالى عليه بعدها .. قائلاً له : إننى لا أسعد بالسعى إلى كبار المسئولين فى مكاتبهم .. ولم أفكر فى زيارة هذا الوزير فى مكتبه لتقديم الشيك إلا احترامًا لشرف مكانه ، ولولا ذلك لأرسلتُه إليه مع أى موظف بالأهرام كما أفعل مع غيره من المسئولين عن بعض المشروعات والهيئات الخيرية التى يسهم « بريد الأهرام » فى تقديم التبرعات إليها .. كما أننى لستُ صديقًا شخصيًّا له ولم ألتق به من قبل ، ولا تربطنى به أية صلة سابقة تبرر له أن يدعونى لمقابلته لأول مرة فى « فرح » أو حفل عام ! وما دام هو لا يحترم أقدار الآخرين فلا لوم علىَّ إذن إن أرسلتُ الشيك غدًا إلى مكتبه مع مندوب من «بريد الأهرام».. ومَن لا يحترم الناس لا يحق له أن يعتب عليهم إن حرموه من هذا الاحترام !

وبهتَ الصديق لانفعالى وغضبى ، وانتهت المكالمة عند هذا الحد ، ونفذتُ ما قلته له ..

وتذكرتُ أين قرأتُ لأول مرة هذه العبارة التى أراعى الالتزام بها دائمًا فى معاملاتى مع الجميع .. كبارهم وصغارهم .. وهى عبارة «شرف المكان» ! فقد قالها الخليفة عمر بن الخطاب حين وَلِىَ الخلافة ، فخاطبه رجل قائلاً : يا خليفة رسول الله .. فأجابه : ذاك صاحبكم ـ يقصد أبا بكر الصديق رضى الله عنه ـ.. فقال له : يا خليفةَ خليفةِ رسول الله .. فقال له: ذاك أمر يطول ! فقال له : يا عمر ! فأجابه : لاتبخسنى شرف مكانى ، فإنما أنتم المؤمنون ، وأنا أميركم . وهكذا صَكَّ الفاروق عمر عبارة «أمير المؤمنين » لأول مرة فى التاريخ ، وهو من هو تواضعًا وبساطة ، وبُعدًا عن المظهرية وغرور السلطة ! وإنما لكل عمل أو مكان أو منصب شرفه الذى ينبغى احترامه واحترام شاغله ، ما احترم هو نفسه واحترم الآخرين ..

ثم مضت بضعة أسابيع وحدث تعديل وزارى ،خرج فيه هذا المسئول من الوزارة .. وبعد أيام قليلة من خروجه كنت مع بعض الأصدقاء فى فندق كبير من فنادق القاهرة ، فاحتجتُ إلى دخول الحمام، واستأذنت من الصِّحاب وتوجهتُ إليه .. فما إن هممتُ بفتح بابه حتى غادره رجل أشيب الشعر ، محدودب الظهر ، كسير النظرة .. وسار وحيدًا فى الممر الطويل ، فخيل إلىَّ أننى قد رأيته قبل ذلك .. ولكن : متى ، وأين رأيته ؟ لا أعرف .. وفكرتُ للحظات ، ونظرتُ إليه مليًّا ،

ثم لمعتِ الذكرى فى رأسى فجأة .. يا إلٰهى ! إنه سيادة الوزير الخطير المتغطرس ، الذى كان حتى أيام قليلة يشمخ بأنفه فى وجوه الناس ، ولا يسير إلا وحوله « زفة » من الحراس والتابعين .. فكيف تهدَّل كتفاه، واحدودب ظهره ، وبدا عليه كل هذا « الغُلْب » خلال هذه الأيام القليلة ؟ !

يا إلٰهى ! أيكون للسلطة كل هذا المفعول السحرى فى نفوس البعض .. ويكون لفقدها كل هذا الأثر الهدّام عليهم ؟

لقد بدا لى الرجل وكأنه قد تقدم فى العمر سنوات خلال أيام قليلة ، وكنتُ قد رأيته قبل هذا اليوم بأسبوع فى التليفزيون ممشوق الجسم .. مرفوع الرأس .. تنطق ملامحه بالقوة والسيادة .. فأين ذهب كل ذلك؟!

ولماذا يمشى وحيدًا كسيرًا ، بلا أصحاب ، ولا أتباع ؟ !

ولماذا لم يستعد لمثل هذا اليوم بالتعامل الإنسانى مع الجميع ، والحرص على مودة الآخرين ، لكى يجد صديقًا ورفيقًا حين يرجع إلى مكتبه المهنى يزاول عمله الذى يستقبل فيه كل مَن يملك أجر خدماته المهنية ؟ !

فإذا سألتَنى : هل شعرتَ بالشماتة فيه حين رأيتَهُ على هذا النحو ؟ ..

أجبتك بلا تردد : لا ورَبِّ الكعبة ! وإنما شعرتُ بالرثاء له ، وببعض العطف عليه ! لأن مَن أتيحت له الفرصة لأن يكون مفيدًا للآخرين وخادمًا للجميع ، فلم ينتهزها بالحق فى إقامة العدل ، وإعلاء كلمة الله فى أرضه ، وكسب النفوس ، وخدمة الآخرين ، وزيادة رصيده عند ربه وعند الناس ، إنما يستحق الرثاء لا الشماتة ! وبهذا الإحساس نفسه استقبلتُه فى مكتبى بعد ذلك ببضعة أشهر حين جاءنى فى أمر من الأمور يتعلق بنشاطه ، فنهضتُ لاستقباله عند باب المكتب مرحبًا ، وأحطتُه بالحفاوة والاحترام طوال الزيارة ، بالرغم من سابق نفورى من طريقة تعامله مع الآخرين حين كان فى غرور السلطة .

ولا عجب فى ذلك أيضًا ولا غرابة ؛ لأن مَن لا يتعظ بما يراه فى الدنيا من أحداث ، لا يتعلم الحكمة ، ولا ينجو كذلك من تقلبات الأيام .

وشكرًا لذلك الصديق الذى أيقظ هذه الذكريات القديمة الراقدة فى أعماقى ، بحواره الممتع معى عن الكبار والصغار فى دنيا البشر !

ممنـوع « الزّعيـقْ »

أسعد أوقاتى حين أتوجه لمشاهدة مسرحية جادة فى مسرح محترم يخاطب العقل والوجدان .. ولا يتعامل مع الغرائز !

فأنا عاشق قديم للمسرح ، لكن ظروف الحياة قد شغلتنى عنه فى السنوات الأخيرة ، فلم أعد أدخله إلا لمامًا .. وفى أغلب الأحيان حين أكون خارج مصر .

فإذا تهيأتُ لقضاء سهرة مسرحية مع عرض جاد ممتع .. فإنى أعبر باب المسرح مبتهجًا كأننى على موعد قريب مع السعادة .. وأحرص قبل دخول قاعة العرض على الجلوس أو الوقوف للحظاتٍ فى مقصف المسرح لأشرب فنجانا من القهوة استعدادًا لسهرة سوف تثرى الروح والوجدان .. ثم أجلس إلى مقعدى فى الصفوف الأمامية أتطلع إلى الستار الأرجوانى الذى يحجب عنا خشبة المسرح بشغف ، وأترقب الدقات التقليدية التى تؤذن بقرب بداية العرض .. وأشعر ببعض الأسف حين أجد بعض المسارح قد استبدلت بها الآن رنين جرس مزعج .. ثم تخفت الأضواء فى القاعة وتنساب الموسيقى التصويرية ، فأتبتَّل خاشعًا وأتهيأ للاستغراق فى العالم السحرى الذى سأدخله .. وحين تنتهى المسرحية أُفرغ انفعالاتى المكبوتة فى تحية فنانى العرض .. بغضّ النظرعما إذا كان قد أعجبنى أو لم أقتنع به ، لأنى أشفق على مَن يتطلع إلى تقدير المشاهدين لجهده فيخذله من يتوقع تقديرهم له أو ينصرفوا عنه فى فتور ، وهكذا فإنى أصفق بحرارة للجميع ثم أغادر المسرح مشحونًا بانفعالات شتى وذكريات قديمة !

نعم .. ذكريات قديمة ..

فلقد بدأتُ حياتى « الأدبية » مؤلفًا مسرحيًّا صغيرًا فى سن الخامسة عشرة ...لكنى تعرضتُ لـ « خيانة ثقافية » قضت ـ للأسف ـ على آمالى المسرحية !

فلقد ألفتُ مسرحية فكاهية من فصل واحد ليقدمها فريق التمثيل بمدرستى الثانوية فى حفل ختام العام الدراسى ، وأشرفتُ على بروفاتها بالفعل ، واصطدمتُ فى سن مبكرة بمشكلة الخروج على النص ، واستشطتُ غضبًا حين لاحظتُ أن صديقى الذى اخترته لأداء دور البطولة فى مسرحيتى يضيف إلى دوره كلامًا لم أكتبه بدعوى أنه سيفجر الضحك لدى الجمهور ، وحذرتُه بشدة من أن يفعل ذلك خلال الحفل وإلا قاطعتُه كصديق ، وتوقفت عن « التعاون الفنى » معه فى المستقبل كمؤلف ! ووعدنى الصديق باحترام التقاليد العريقة احترامًا للمسرح وحفاظًا على صداقتى ، غير أننى مرضتُ فجأة فى ذلك الحين مرضًا شديدًا ألزمنى الفراش لمدة شهر كامل وأضاع علىّ فرصة مشاهدة مسرحيتى الأولى ، كما حرمنى أيضا من دخول امتحان الدور الأول للسنة الأولى الثانوية .. فأما الامتحان فلقد عوضتُ فرصته الضائعة بدخول امتحان الدور الثانى فى كل المواد ، والنجاح فيه . وأما فرصة ميلاد عملى الفنى الأول ، وترقب استقبال الجمهور له وتفاعلهم معه ، وسماع كلمات الإعجاب والإشادة به .. فلقد فاتتنى للأبد ولم أستطع تعويضها بعد ذلك قط ، لكنى رحتُ أتسقط أخبار «المسرحية » من أصدقائى وزملائى الذين يعودوننى فى مرضى ، ولاحظتُ بقلق أنهم لا يشيرون بكلمة للمسرحية فى حديثهم معى ،

وفهمتُ من ذلك أنها قد فشلت فشلاً ذريعًا ، وأنهم يتعمدون تجاهل الأمر إشفاقًا عليّ من مرارة الفشل. ثم عرفتُ سر الصمت والتجاهل حين اجتزتُ المحنة المرضية ، وبدأت فترة النقاهة .. فقد باح لى صديق منهم بما حرص الجميع على كتمانه عنى خلال مرضى ، وهو أن الصديق بطل المسرحية قد خاننى وقدم المسرحية « للجمهور » باسمه هو كمؤلف لها وليس كبطلٍ فقط لأحداثها ، وأنه كتب فى إعلاناتها أنها من تأليف وإخراج وتمثيل : فلان ! فكانت هذه هى أول « خيانة ثقافية» فى حياتى ، وتألمتُ لها بعض الوقت ، غير أننى لم أتوقف أمامها طويلاً ، وإنما قلتُ لنفسى كما اعتدتُ دائمًا فى المواقف المماثلة : إن ما حدث ربما كان خيرًا أراده لى الله سبحانه وتعالى .. قد تَخفَى عنى الآن حكمته، ولكنها سوف تتضح لى بالتأكيد بعد حين ..

والآن وبعد هذه السنوات الطويلة فإننى أدرك حكمة هذا الخير الذى خفى عنى وقتها وتألمتُ له فى حينه .. إذ ربما لو كنتُ قد جربت نشوة الإعجاب وتصفيق الجمهور بما كتبتُ لصدقتُ وقتها بالفعل أننى مؤلف مسرحى ، ولأهدرت طاقتى وعمرى فى طريق لم تهيئنى له العناية الإلهية .. ولعانيتُ مرارة الفشل والإحباط حين أطرق بابًا لا يستجيب لطرقاتى ..

فالحق أننى لم أكن « موهوبًا » فى التأليف المسرحى بأى شكل من

الأشكال ، ولم يكن ما كتبتُه فى هذه المسرحية الهزلية سوى صدًى لإعجابى المبكر بمسرحيات توفيق الحكيم التى كنت أقرأها وقتها بشغف ، وحاولتُ تقليدها بغير نجاح يُذكر فى هذه المسرحية ، فاستسلمتُ لما أرادته لى الحكمة الإلهية بتعرضى لهذه الخيانة المسرحية .. وكففتُ عن تكرار المحاولة بعد ذلك أبدًا ، وعوضتُ حرمانى المسرحى بمتابعة الحركة المسرحية باهتمام ، خصوصًا حين انتقلتُ من مدينتى بالأقاليم للدراسة بجامعة القاهرة ، وعرفتُ الطريق إلى المسرح القومى بالأزبكية .. وذهلتُ لما أراه على خشبته من فكر راق وأداء مبدع لفنانين عظام ، توارى إلى جانبه ما توهمتُ ذات يوم أنه عمل مسرحى يصلح للعرض على خشبة المسرح ! وأدمنتُ التردد على المسرح القومى ، ولاحظت أن دمعى يسحّ بلا حياء وأنا أشاهد الفنان «فاخر محمد فاخر» وهو يؤدى مشهد الختام فى مسرحية «مجنون ليلى» لأمير الشعراء أحمد شوقى ، خصوصًا حين يقول وهو جاثٍ يبكى على قبر محبوبته :

ولقـــد أقـــولُ لمـــن يُبشِّرُنـــى بالخلْدِ : مـــا أنا داخـلٌ وحـدِى

لـو أنَّ ليـلى فى النعيـمِ معـى أو فى الجحيمِ .. تَساوَيا عندِى !

ثم يدخل فى دور الاحتضار ، وتختلط عليه الرؤى ، ويسمع صوت ليلى يناديه من قبرها ، فيشهق شهقة مؤلمة ويقول :

قيــسُ .. ليـلى .. رنــةٌ فى أذنــى   رددتْ : « قيس وليلى » الفلواتْ

نحـن فى الدنيـا وإن لم تَــرَنــا   لم تَمُتْ ليلى ولا المجنون مـاتْ !

ثم يسلم الروح وتسدل الستار .. وكنتُ منذ أن بدأ هذا المشهد قد فقدتُ السيطرة على دموعى ، وشعرت بالخجل من نفسى ، فحاولتُ تجفيفها من غير أن ألفت انتباه من حولى ، ثم لاحت منى نظرة إلى من يجلس بجوارى ، وكان رجلاً فوق الستين من عمره ، فإذا بى أراه يبكى فى صمت مؤثر ، وتشجعتُ بذلك .. وتلفتُّ أكثر فإذا بى أرى الدموع فى عيون معظم المتفرجين ، خصوصًا من السيدات ،فتخلصتُ من حرجى ، ونَفَّسْتُ عن مشاعرى المكبوتة بارتياح . وحين انفتح الستار مرة أخرى عن « فاخر فاخر » ليرد تحية الجمهور ، كانت تحيتهم له صراخًا وولولة أكثر منها تصفيقًا !

ومن عجب أننى وجدت نفسى فى موقف مماثل بعد سنوات طويلة من هذه الذكرى ، وأنا أشاهد منذ ثلاثة أعوام مسرحية فيكتور هوجو الرائعة « البؤساء » فى أحد مسارح الـ « وست إند » بلندن .. فلقد تندَّتْ عيناىَ بالدمع فى مشهد الحب المؤثر بين الفتى الأول والفتاة الجميلة اليتيمة « كوزيت»، ورنوتُ بحذر إلى صديقى الذى يحضر معى المسرحية واطمأننتُ حين وجدته مستغرقًا فى المشاهدة ولا يلحظنى ..

ثم سمعتُ نشيجًا خافتًا ، وتلفتُّ ناحيته فإذا بسيدة شابة تجلس فى الصف الأمامى تبكى بحرقة ، وزوجها يحتضنها فى عطف ويعطيها منديلاً ورقيًّا لتجفيف دمعها !

فإذا كان « مستقبلى » المسرحى قد ضاع إلى الأبد بسرقة أولى مسرحياتى ، فإن متعتى بالمسرح الجاد الراقى وانفعالى إلى درجة التأثر الوجدانى الشديد به لم يضيعا منى .. ولم يستطع أحد أن يحرمنى منهما .

ولقد شكرتُ الله كثيرًا فيما بعد أن حرمنى موهبة التأليف المسرحى حين اقتربتُ من الكاتب المسرحى الراحل محمود دياب ـ رحمه الله ـ وكان من أعظم كتاب المسرح الموهوبين فى الستينيات والسبعينيات ، وعايشتُ بعض عذاباته وإحباطاته ، حتى مات قبل أن يبلغ الخمسين حسيرًا مهمومًا بهموم وطنه ، وممرورًا بالإحساس بالتجاهل وعدم الاعتبار ، ووجدتُ بديلاً عن الأحلام المسرحية متعتى فى مشاهدة المسرح ، ومتابعة خطوات بعض أصدقائى الذين دخلوا عالمه ، سواء بالتأليف أو الإخراج أو التمثيل .

كما وجدتُ نفسى ذات مرة أمارس من حيث لا أحتسب دور «المخرج » مع صديقٍ لى جاء من مدينتنا فى الستينيات للالتحاق بفرق التليفزيون المسرحية ، وأقام ضيفًا علىّ فى شقتى الصغيرة بجوار كوبرى

الجامعة ، وحددتْ له لجنة الامتحان بفرق التليفزيون موعدًا يؤدى فيه أمامها ثلاثة مشاهد مسرحية متنوعة لاختبار قدراته التمثيلية ، لابد أن يكون أحدها على الأقل بالعربية الفصحى .. واستشارنى صديقى فيما يختاره من مشاهد للامتحان .. فاخترتُ له من قراءاتى المسرحية مشهد الختام فى مسرحية « مجنون ليلى » لشوقى ، ومشهد حفار القبور من مسرحية شكسبير الخالدة «هاملت » ، ومشهدًا من مسرحية « الست هدى » الفكاهية لأمير الشعراء .

ولم أكتفِ بالترشيح والاختيار فقط ، وإنما توليتُ أيضًا تحفيظه هذه المشاهد ، بل و « إخراجها » أيضًا .. وكانت مشكلتنا وقتها هى البروفات ! فلقد كنا نبدؤها عقب عودتى من عملى بالأهرام بعد منتصف الليل ، وكان صديقى جهورى الصوت بشكل لافت ، فما إن يندمج فى الأداء حتى يفلت منه الزمام ويصيح بأعلى صوته بحوار المشهد ، فلا تمضى لحظات حتى أسمع طرقًا على الباب وأجد بعض الجيران الشاكين من هذا الإزعاج !

وحرصًا على العلاقات الودية مع جيرانى فلقد نقلنا ساحة البروفات إلى كوبرى الجامعة القريب .. فكان منظرنا وأنا أقف أمامه ممسكًا فى يدى بالنصوص المسرحية ، وهو « يجعر » بأعلى صوت فى خلاء الكوبرى مرددًا الحوار بعد الثانية صباحًا ، يستوقف العابرين

بسياراتهم ، وقد يطلق أحدهم ضحكة عالية أو كلمة ساخرة .. من هذين المهووسين !

أما ما حدث فى إحدى هذه الليالى فإننى لم أنسه قط بعد ذلك ، فلقد اندمج صديقى فى الأداء ، فجلجل صوته مبددًا هدوء المكان ، فإذا بشرطى شاب يقترب منا منزعجًا ويسألنا فى ارتياب عن سبب وقوفنا على الكوبرى فى الثالثة صباحًا ، وسبب «تشاجرنا » معًا وتبادلنا الصياح على هذا النحو !

وشرحنا له السبب وأطلعناه على بطاقة الامتحان الخاصة بصديقى الهاوى ، لكنه لم يقتنع بشىء من هذه الترهات وأصر إصرارًا شديدًا على شيئين.. هما : أن « الصلح خير » ولا داعى للشجار بيننا على هذا النحو .. والثانى هو أنه ممنوع « الزعيق » بعد منتصف الليل مهما كانت الأسباب .. ولسوف يقتادنا صاغرين إلى قسم الشرطة إن لم نمتثل لذلك .. وانتهى الموقف بامتثالنا بالطبع لرغبته وانسحابنا من الكوبرى!

أما صديقى الآخر فلقد كانت رقة مشاعره سببًا فى تحطيم أحلامه المسرحية على نحو مختلف ! .. فلقد كان طالبًا بكلية الحقوق وعضوًا بفريق التمثيل ، وكان مخرج الفرقة وممثلها الأول طالبًا « مزمنًا » وفنانًا

موهوبًا بحق ، أمضى فى دراسة الحقوق عشر سنوات ، حرص خلالها على التقدم كل عام لمسابقة التمثيل المسرحى للجامعات بمسرحية «لويس الحادى عشر » .

وأصر طوال السنوات التى أمضاها صديقى هذا طالبًا بالكلية وعضوًا بفريق التمثيل ، على ألا يعطيه سوى دور حارس شبه صامت فى المسرحية ، واعدًا إياه كل عام بأنه سوف يعطيه دورًا أكبر فى العام التالى .. إلى أن جاءت الليلة الحاسمة فى حياة صديقى المسرحية ، وقدم فريق التمثيل بكلية الحقوق مسرحيته المفضلة على خشبة مسرح الأزبكية أمام لجنة التحكيم التى تقدر لكل فريق درجة من مائة درجة ، ومضت أحداث المسرحية بسلام إلى أن جاء مشهد الختام ، وكانت خطة الحركة المسرحية فيه تقضى بأن يلقى بطل المسرحية الطالب «المزمن » مونولوجًا مؤثرًا وهوفى فراش الموت ومن حوله الأمير الشاب وأربعة من الحراس ، أحدهم صديقى إياه، فما أن يلفظ البطل أنفاسه الأخيرة حتى يجثو الأمير على ركبتيه باكيًا ويقول : دعونى وحدى!.. فينسحب الحراس الأربعة بهدوء ويخلون المسرح إلا من جثمان الملك الراحل فوق فراشه والأمير الحزين ، فيلقى الأمير رثاءه المؤثر للملك ثم ينهض مودعًا جثمانه ببطء إلى خارج المسرح ، ويسدل الستار !

وفى تلك الليلة أدى الطالب المزمن دوره بإتقان مؤثر ، وبكى الأمير بدموع حقيقية حتى صاح فى ألم : دعونى وحدى ! فبدأ الحراس ينسحبون ببطء واحدًا وراء الآخر.. إلا حارسًا واحدًا هو صديقى هذا ! فلقد غاب عن الوجود فى غمرة تأثره بالمشهد الحزين ، ونسى الحركة المسرحية وسالت دموعه بحرارة ، وأصبح كل همه هو أن يسمع ماذا سيقول الأمير فى رثائه للملك .. إلى أن أفاق من ذهوله على صوت الملك « الراحل » يهمس له من فراشه وهو يتميز غيظًا : « اخرج بره يا حيوان » !

وتنبه الحارس للموقف .. لكنه بدلاً من أن ينسحب بهدوء تخيل ما سوف يناله من غضب المخرج بعد انتهاء المسرحية .. فتجمد فى موقعه لا يدرى ماذا يفعل للحظات أخرى ..

فإذا بصوت المخرج يهمس مرة أخرى بغضب أشد : « خربت بيتى وضيعت علىّ عشرين درجة .. اخرج يا حيوان » ! فتخلص من جموده أخيرًا وهرول خارجًا، وبالتالى تأثر جلال المشهد بهرولته المضطربة .. وضحك أعضاء لجنة التحكيم !

فما أن انتهى المشهد ورد البطل والأمير تحية الجمهور ، حتى هرول البطل إلى الكواليس وهو يزأر كالوحش : « هوه فين ؟ هوه فين ؟ »

لكن هيهات أن يجده بعد أن حدث ما حدث .. فلقد أدرك صديقى ما ينتظره عقب نهاية العرض ، فهرول بملابسه المسرحية إلى بيته ، وكانت هذه اللحظة هى مشهد الختام بالنسبة لأحلامه المسرحية .. بل ولهوايته للمسرح أيضًا ! فلم يعد يقترب من خشبته لا ممثلاً ولا متفرجًا بعد ذلك قط !

ألم أقل لك : إننى أسعد حالاً من غيرى ممن تحطمت أحلامهم المسرحية مثلى لسبب أو لآخر ؟ !

سأقـول «حكمـة»

نعم .. سأقول لك « حكمة » تستفيد بها فى حياتك إذا أردتَ كما استفدتُ أنا بها كثيرًا ، وحاولتُ جاهدًا أن أعمل بها فى حياتى ..

لكنى لست « مبدعها » ولا أزعم لنفسى « الحكمة » أو الفلسفة ، وإنما أنقلها إليك ممن تعلمتها منه ، وناقل الحكمة ليس بحكيم ، كما أن ناقل الكفر ليس بكافر !

أما « مبدع » هذه الحكمة الغالية فهو رجل بسيط من أبناء البلد ، يرتدى الجلباب البلدى النظيف والصديرى المزركش تحته ، ويلف رأسه « بلاثة » جميلة ناصعة البياض ، ويرتدى ساعة ذهبية فى معصمه ، ويشى مظهره كله بذوق أبناء البلد الأصلاء وظرفهم ، وذكائهم الفطرى الذى يمكنهم من أن « يفهموها » وهى «طائرة» محلقة فى الجو وقبل أن تحط على الأرض !

أما « الساحة » التى أطلقَ فيها هذه « الحكمة » فقد كانت صالة مسرح محمد فريد فى فترة الستينيات ، وكان المسرح أيامها يعرض مسرحية جديدة لمؤلف جديد لم يكتب قبلها ، ولم يكتب بعدها ، لأنه لم يكن مؤهلاً من الأصل للكتابة المسرحية ولا موهوبًا فيها ، لكن العهد وقتها كان عهد الاشتراكية الذى تسيطر فيه الدولة على كل مؤسسات الفكر والفن والثقافة ، ويتولى مراكز القيادة فى معظمها قيادات من أهل الفكر الماركسى الذين خرجوا من السجون والمعتقلات وتحالفوا مع النظام ، وشغلوا مراكز قيادية فى الحياة الأدبية والفنية فى البلاد باعتبارهم من « أهل الثقة » ، بغضّ النظر عن الخبرة . وكان مؤلف هذه المسرحية اليتيمة مناضلاً ماركسيًّا سابقًا ، قضى عدة سنوات فى المعتقل ، وخرج من السجن فعيّن فى إحدى المؤسسات التى تسيطر على الحركة الفنية ، وبحكم موقعه الجديد أصبح صاحب دور ونفوذ فى عالم

المسرح ، فتطلع لأن يكتب مسرحية يخلد بها اسمه فى تاريخ الفن ، واستعان بثقافته العريضة على ذلك ، ولم يتوقف لحظة أمام نفسه ليسألها: هل يملك أصلاً الموهبة التى تؤهله لذلك أم لا ؟ والنفس بطبيعتها قد تطمح أحيانًا لنيل ما لا ترشحه له قدراتها، وإغراء السلطة كالخمر يدير الرؤوس ويعمى الأبصار عن القدرات الحقيقية للإنسان فى كثير من الأحيان . ولقد كانت كل الفرص متاحة أمامه ، فلماذا لا يكتب مسرحية تمثل فوق خشبة المسرح وتحمل لافتاتها اسمه ، وتُعقد الندوات الأدبية لمناقشة مستواها الرائع وفكرها العميق؟ وبم يزيد عليه توفيق الحكيم الذى تتنافس فرق الدولة المسرحية على تقديم مسرحياته ؟

وهكذا كتب الرجل مسرحيته أو « درته اليتيمة » كما يقول نقاد الأدب عن العمل الأدبى الواحد لأحد المفكرين ، ولم يكن ينوى بالطبع أن تكون هذه المسرحية درته اليتيمة حين كتبها ، لكن تطورات القصة التى سأرويها لك فيما بعد هى التى قضت عليها بذلك .

فلقد جاءت المسرحية عملاً ذهنيًا جافًا لا تتوافر فيه معظم قواعد الدراما المتعارف عليها .. ولا تعدو أن تكون مناقشات طويلة متصلة حول قضايا فكرية عويصة كقضية « النشوء والارتقاء » وأصل الكون ومصيره إلخ .. كما كانت طويلة طولاً غير مألوف بالنسبة للمسرح .

لكن ماذا يهم وأعضاء لجنة القراءة بالمسرح الذين سيقررون قبولها معظمهم من الرفاق المتعاطفين مع المؤلف من باب الالتزام العقائدى وليس من باب الإعجاب بالموهبة ؟ وماذا يعرقل المؤلف ومسئولو مؤسسة المسرح الذين سيعتمدون ميزانية إنتاج المسرحية من الرفاق القدامى ، وسوف يفعلون ذلك تكريماً لشخصه وليس إعجابًا بمسرحيته ؟!

وكان ما توقعه المؤلف بالفعل ، فشقت المسرحيةِ طريقها فى لجان مؤسسة المسرح شامخة « كالعروس » .. تدعمها تقارير اللجان المختصة التى تشيد بعمقها وارتفاع مستواها .. وتصدى لإخراجها مخرج صديق لم يكن من أهل الفكر الماركسى ، لكنه يريد أن يعمل ويفرغ فنه على خشبة المسرح ، ويستفيد من دعم الرفاق لهذه المسرحية «الأعجوبة » فى نظرهم ، وقرأ النص فوجده جافًّا مملاً ، وتحير .. هل يرفضها فيمضى بضع سنوات أخرى بلا عمل ، ويستثير عليه عداء الرفاق واتهاماتهم التقليدية له ولأمثاله بالرجعية الفكرية ومعاداة حركة التاريخ .. إلخ؟ أم يقبلها ويجتهد لأن يخفف من جفافها بخبرته وفنه وبعناصر الفن المسرحى الأخرى ؟

وانتهى إلى الرأى الثانى ، وقرر أن يسند أدوارها لعدد من نجوم الكوميديا المشاهير وقتها لكى يستفيد بشعبيتهم لدى الجمهور على

مضمون المسرحية الجاف . ونجح فى إقناعهم بذلك فعلاً ، وبدأ فى إخراجها .. وراقبتُه عن قرب خلال التجارب المسرحية ، وأشفقتُ عليه كثيرًا مما يعانيه من ضغوط شديدة من كل الاتجاهات .. من أبطال المسرحية الذين يشكون له من عقم الحوار .. ومن المؤلف الذى لا يقبل تغيير كلمة واحدة من حواره أو اختصار بضعة سطور منه .. كأنه شكسبير العظيم لا يجوز المساس بكلماته الشعرية البليغة !

واضطر المخرج لتقديم النص الكامل للمسرحية كما وضعه المؤلف، رغم اعتراضه على طوله ، وجاءت البروفة الأخيرة التى تسبق ليلة العرض الأولى للمسرحية أو « البروفة جنرال » كما يقول أهل المسرح ، فبدأ العرض فى التاسعة مساءً وانتهى فى الخامسة والنصف صباحًا !

وتجدد الخلاف مرة أخرى بين المؤلف والمخرج الذى أصر على اختصار ثلث حوار المسرحية ، وإلا فإنه سوف ينتحر الآن وعلى الفور!

وتكتل «النقاد » ـ الذين شهدوا البروفة الطويلة حتى تساقطوا صرعى الإجهاد من ثقل وطأتها ـ على المؤلف ليقنعوه بالاستجابة لرغبة المخرج لصالح العمل والجمهور ، فسلم بذلك مضطرًّا وانصرف غاضبًا ، وواصل صديقى المخرج عمله فى هذه المسرحية القاتلة بلا نوم حتى موعد العرض فى الليلة التالية .

واجتذبت المسرحية فى ليلتها الأولى عددًا كبيرًا من الجمهور جاءوا إلى المسرح متوقعين أن يشهدوا مسرحية ضاحكة ممتعة ، اعتمادًا على أسماء أبطالها المشاهير ، فإذا بهم يجدون أنفسهم أمام مشهد واحد لا يتغير لمدة خمس ساعات ، ومناقشات مملة عن نشأة الحياة .. وأصل الكون .. وغير ذلك من القضايا الفلسفية التى لا يحتملها الجمهور العادى ، ولا يملك أن يتصدى لها إلا مؤلف عظيم الموهبة يصوغها فى قالب من الأحداث الدرامية الممتعة ، وليس فى حوارات طويلة بين أشخاص يتناقشون وكأنهم فى ندوة مدرسية !

وتَكَشَّفَتِ الحقيقة عارية .. وهى أنه لا متعة ولا فن فى هذه المسرحية ، فتراجع الإقبال الجماهيرى عليها سريعًا برغم أسماء أبطالها المحبوبين . أما فى صفحات النقد المسرحى التى كان يشرف على معظمها رفاق المؤلف فقد كان الحال مختلفًا إلى حد كبير ، وتوالت المقالات التى تشيد بالمسرحية .. و « فن » كاتبها المثقف ، وعبقريته الدرامية إلخ .. واستمر عرض المسرحية رغم تراجع الإقبال عليها . ولو كانت لمؤلف من غير « الأنصار » لصدر قرار على الفور بإيقافها .

وكنتُ أتردد عليها كثيرًا فى ذلك الوقت لألتقى بمخرجها الصديق، وأشاهد بعض فصولها من حين لآخر ، إلى أن جاءت ليلة كان صديقى

المخرج فيها مكتئبًا أشد الاكتئاب بما يشنه عليه المؤلف من هجوم فى الصحف والجلسات الخاصة مدعيًا أنه شوه المسرحية باختصارها ، وأنه لم يرق بإخراجه لها إلى مستواها .. إلخ ..

وتحدثنا عن ذلك طويلاً ، وحاولتُ قدر جهدى التخفيف عنه بأنه لا يصح إلا الصحيح فى النهاية ، وأنه حتى النقاد الذين يتعاطفون «عقائديًّا » مع المؤلف فى خلافه معه يعرفون فى قرارة أنفسهم أن رفيقهم عاطل من الموهبة المسرحية ، وأنه لولا إخراجه لها لما توافر فيها الحد الأدنى المقبول من الشكل المسرحى .

ثم دخلنا صالة المسرح لنجلس بين الجمهور القليل الذى يشاهدها ونُرَوِّح عن نفسينا بعض الوقت ، فرأيتُ فى تلك الليلة ذلك الرجل من أبناء البلد الذى حدثتُك عنه فى بداية المقال ، وكانت رؤيتنا له ومتابعتنا لما فعل مُفَرِّجًا لنا من الكرب الثقيل من حيث لا نحتسب ، فلقد كانت المسرحية تحكى عن نشأة الكون وخلق الإنسان الأول، ثم المرأة الأولى، ثم مَن تكاثر بعدهما من الأبناء والأحفاد ، ولأنه « الإنسان الأول» فلقد كان عليه أن يعلّم الأبناء حقائق الحياة والممارسات الأولى لكل الأشياء ، ويمهد لكل « حقيقة » جديدة يسوقها إليهم بصيحة درامية عالية هاتفًا : سأقول حكمة!

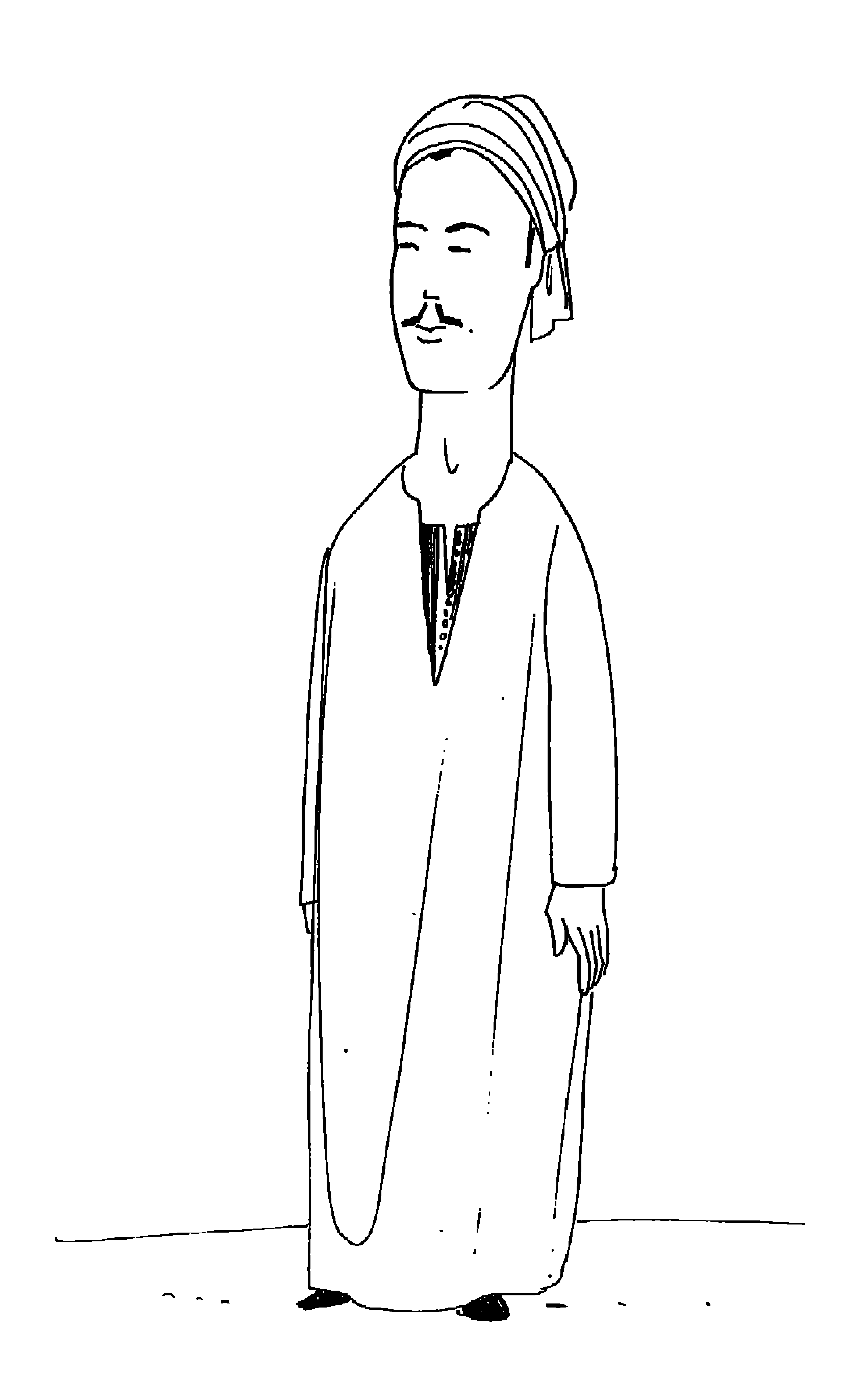
وينصت الأبناء والأحفاد ويرهفون السمع، فيقول :

ـ يحتاج كل رجل إلى المرأة لكى يسكن إليها وينجب منها الأبناء ـ ثم تتتابع أحداث المسرحية بعد ذلك ـ أو قل حواراتها حيث لا أحداث فى الحقيقة ـ فيهتف الإنسان الأول مرة أخرى نفس الهتاف : سأقول حكمة ، ثم يقول :

ـ ترضع المرأة وليدها لمدة عامين قبل فطامه !

وهكذا طوال المسرحية المملة !

ويبدو أن ذلك الرجل من أبناء البلد كان يمر بالمصادفة أمام مسرح محمد فريد تلك الليلة، فرأى صور نجوم الكوميديا المشاهير الذين يؤدون أدوارها وقرأ أسماءهم، فاشترى لنفسه تذكرة فى الصفوف الأولى ،ودخل إلى قاعة المسرح مُمَنِّيًا النفس بسهرة بهيجة ضاحكة مع هؤلاء النجوم المحبوبين ، وبدأ عرض المسرحية وتوالت مشاهدها وحواراتها فلم يضحك ، ولم يجد فيها ما يُبهجه أو يُمتعه أو يثير اهتمامه، لكنه لم يتعجل الأحداث، وواصل المشاهدة فى صبر آملاً أن تزداد الأحداث بعد ذلك سخونة أو سرعة ، وتحدث المواقف الكوميدية التى تثير الضحك وتشد الانتباه ، لكن المناقشات السمجة البطيئة تواصلت إلى ما لا نهاية حتى مضت ساعة بغير أن يبتسم ابتسامة واحدة ، أو



يستمتع بشىء مما يراه ، فحسم أمره فى لحظة خاطفة ، ونظر فى ساعته الذهبية .. ثم نهض من مقعده وخرج من الصف إلى الردهة التى تتوسط المسرح بين المقاعد .. وصاح بنفس لهجة بطل المسرحية ووجهه إلى خشبة المسرح وبأعلى صوت ممكن : سأقول حكمة !

فالتفتت إليه أنظار المشاهدين فى دهشة ، وتوقف الممثلون عن التمثيل والتفتوا له متعجبين ، فكرر صيحته مرة أخرى بنفس الطريقة المسرحية:

ـ سأقول حكمة !

ثم قال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته !

واستدار ناحية باب الخروج وغادر قاعة المسرح بخطوات عسكرية نشيطة معلنًا رأيه فى المسرحية والهراء الذى تقدمه بأبلغ وأغرب وأطرف تعبير ممكن عن الرأى !

ومرت لحظة سكون لم يكن يتردد خلالها بالمسرح سوى وقع خطواته العسكرية على الأرض .. ثم أدرك الجميع الموقف فانفجروا فى الضحك الصاخب ، وانفجر الممثلون فوق الخشبة ضاحكين وفقدوا اندماجهم المسرحى لعدة دقائق .. ولم يتمالك بعضهم نفسه من أن يدق على كف زميله ضاحكًا بانفعال شديد ، بل ومتشفيًا أيضًا فى مؤلف

المسرحية ، وعباقرة مؤسسة المسرح الذين يصرون على استمرار عرضها رغم الفشل الواضح .. وفى كل الأدعياء والمحاسيب من أمثالهم !

أما أنا وصديقى المخرج فلقد أجهدتْنا كثرة الضحك والانفعال العنيف بهذا الموقف الغريب الممتع ، حتى رحنا نلتقط أنفاسنا بعدها بصعوبة . وحين تمالكتُ نفسى بعد ذلك دفعتُ صديقى المخرج فى كتفه وأنا أنهض من مقعدى قائلاً له : ماذا تنتظر ؟.. هيا بنا نلحق بهذا « الناقد » الصادق مع نفسه ـ والذى لا يغيِّر ضميره مجاملة لأحد ـ لنتعرف عليه !.. وهرولنا معًا خارج المسرح ، لكننا لم نلحق به للأسف ولم نجده .. فلقد ذاب فى زحام المارة بشارع محمد فريد تاركًا وراءه ردًّا أبلغ من كل رد على كل من يدعى لنفسه ما ليس فيها من قدرة وموهبة، وكم تمنيتُ لو كنتُ قد لحقتُ به وتعرفتُ عليه لأبلغه بإعجابى بذكائه الفطرى ، وخفة ظله التلقائية وعبقريته البديهية فى التعبير عن الرأى بغير الحاجة إلى كل مصطلحات المثقفين .. وكلماتهم العويصة ! فلقد كان « صاحب رأى » وليس مجرد متفرج تافه الشأن !

ولقد كان يستطيع أن يغادر قاعة المسرح فى هدوء وينجو بنفسه من سجنها الثقيل عليه بغير أن يشعر به أحد ، لكنه لم يشأ أن يفعل ذلك وأراد أن يقول « كلمته » فى هذه المسرحية الفاشلة السمجة قبل أن يغادرها ، كما أنه رجل عف اللسان بغير شك ، فقد قال رأيه عمليًّا فى

المسرحية بغير أن ينطق بكلمة نابية واحدة أو يخرج عن حدود الأدب في التعبير ، وإنما استلهم من سماجة المسرحية نفسها ببديهته السريعة «الشكل الدرامى » الذى يغادر به قاعة المسرح ويقول رأيه ، فأعلن عن « الحكمة » التى يريد أن يقولها، ثم نطقها فإذا بها تحية الوداع للحاضرين وللمسرحية التى لا تعجبه .. وللخزعبلات التى تتردد فيها.

فكأنما قد عمل من حيث لا يدرى بتلك العبارة الشهيرة التى يرددها أهل الرأى الآخر فى مواقف الاختيار الصعبة ، ويمهدون بها لمواقفهم التى قد تجر عليهم المتاعب.. وهى : قل كلمتك وامش !

أى قل رأيك كما يمليه عليك ضميرك وكما تؤمن به .. ولا تنتظر ثناء من أحد .. ولا تأبه لعقاب أو ضرر ينالك بسببه !

ولقد ذكرنى هذا الرجل بعبارة شاعر الهند وفيلسوفها طاغور من أن الزمن هو أشرف النقاد ، لأنه الناقد الوحيد الذى يُعلى الحق ويسقط الباطل ولا ينحاز لأحد!

وقد كان هذا الرجل واحدًا من « أشرف النقاد » فى تاريخ الحركة المسرحية فى بلادنا .. وأخفهم ظلاً .. وأكثرهم صدقًا مع النفس وذكاء فى التعبير عن الرأى .. فلقد قال لنا بأبلغ عبارة إنه لا يصح فى النهاية

إلا الصحيح ، مهما حاول بعضنا أن يُلبس الباطل ثوب الحق .. أو يدعى لنفسه ما ليس لها من قدرة أو موهبة .. أو يقحم نفسه على عالم ليس من أهله اعتمادًا على نفوذه أو نفوذ أنصاره ، وأنه حتى لو استطاع أن يفعل ذلك وهُيِّىء له أنه قد نجح فيه ، فلن يمضى وقت طويل إلا وينكشف الزيف ..ويذهب الزبد جفاء .. ولا يبقى فى الأرض إلا ما ينفع الناس.

« ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه » فى النهاية كما يقول لنا رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

فهل أدركتَ يا صديقى مغزى « الحكمة » العميقة التى أردتُ أن أنقلها إليك عن هذا الرجل ؟

هــدوء مــن فضـلك

فى أحد شوارع مدينة صغيرة وهادئة فى الوسط الغربى من أمريكا ، شاهدتُ هذا المنظر : رجل مسن ـ لعله فى الثمانين من عمره ـ يجلس على دَرَجِ مدخل العمارة الصغيرة التى يقيم بها ، ومن حوله عدد من الحمام العجوز يلتقط الحب الذى يلقيه إليه ويشرب من إناء الماء الذى يضعه له ، وهو يرقب الحمام حينًا ، ويحملق فى الخلاء حينًا آخر ، وسكينة الدنيا كلها تحيط به وبالمكان كله .

وعرفتُ من قريبى الأستاذ الجامعى الشاب الذى كنت أزوره فى هذه المدينة الأمريكية الهادئة ، أنه يرى هذا الرجل فى هذا الموعد نفسه كل يوم منذ بضع سنوات .

فراقبتُه للحظات وتأملتُ دماء الصحة والعافية وعلامات « روقان البال » البادية عليه ، وقدرتُ أنه رجل يعيش تلك المرحلة من العمر التى يسمونها فى الغرب « السن المُسَكَّرَة » أو « Sugar Age » بعد أن أدى دوره فى الحياة وشبع من العمل الشاق ، وآن له أن يقضى حياته فى سلام بلا لهاث ولا جرى وراء شىء ، ويساعده هدوء المكان الذى يقيم فيه وخلوه من ضجيج المواصلات والكاسيتات والميكروفونات على الاستمتاع بحياته وأوقاته . نظرتُ إليه مرة أخرى وتمتمتُ هامسًا:

ـ يا بَخْتُه !

فمنذ سنوات وأنا أحلم حلمًا مستحيلاً .. هو أن أقضى أيامى فى مكان هادىء أستطيع أن أقرأ وأكتب فيه بغير أن يفزعنى صوت صاخب ، أو يقطع علىّ أفكارى نعيق ميكروفون أو كاسيت أو كلاكس سيارة أو طنين زحام البشر .

ومنذ سنوات خُيِّلَ إلىّ أننى قد حققتُ هذا الحلم وأصبحتْ لى «صومعة » أهرب إليها من ضجيج الحياة ، فأكتب فيها « بريد الجمعة » وقصصى القصيرة ومقالاتى الأدبية التى أصدرها فيما بعد فى كتبى ،

وتحقق ذلك حين تسلمتُ شقة فى الهرم حصلتُ عليها لابنى ، ورأيتُ أن أستفيد منها إلى أن يحتاج إليها فىَ المستقبل .. فأثثتها بأثاث بسيط ، لكنه لا يخلو من لمسة فن أو جمال ، ونقلتُ إليها فائض كتبى وأوراقى التى يضيق بها مسكنى ، وأعددتُ لنفسى فيها مكتبًا كبيرًا ، وزينتُ جدران الشقة بلوحات مقلدة وأصلية ، وعلقتُ عليها صورة زيتية لأديبى المفضل نجيب محفوظ ، وأخرى لأمير القصة القصيرة الروسى أنطون تشيكوف، وزودت مطبخها بماكينة لصنع القهوة وبراد كهربائى لصنع الشاى ، وهما عدتى وزادى عند الكتابة .. وافتتحتُ « الواحة الجديدة » عازمًا أن أقضى فيها يومين فى نهاية كل أسبوع ، أكتب خلالهما « بريد الجمعة » وما تسمح به عرائس الإلهام .. مستمتعًا بهدوء المكان وسكينة الشارع الضيق الذى تطل عليه الشقة، ومعظم مبانيه الجديدة خالية من البشر .

وتوجهتُ لواحتى فى يومى الأول معها حاملاً كتبى وأوراقى، وبدلتُ ملابسى بملابس مريحة ، وتذكرتُ وأنا أفعل ذلك أديبى المفضل فى الأدب الفرنسى أونوريه دى بلزاك ، الذى كان يتهيأ للكتابة بارتداء رداء راهب ، إشارة لما تتطلبه الكتابة من تجرد من الدنيا ورهبنة. واعتزمتُ أن أقضى المساء والليل مثله أحتسى القهوة والشاى وأكتب.

وما أن جلستُ إلى مكتبى واستغرقتُ فى الكتابة حتى فزعتُ على

صوت دق متواصل شبيه بدق آلات الإيقاع فى الفِرَق الموسيقية الغربية، لكنه دق لا تصاحبه موسيقى .. وإنما طرق متواصل يبدأ خفيفًا ثم يشتد تدريجيًا إلى أن يبلغ ذروته بطرقة هائلة تُطير الأفكار من رأسى والأوراق من أمامى ، وتساءلتُ ذاهلاً عن سر هذا البلاء غير المتوقع .. وراعنى أن الدق يتوقف لحظة واحدة بعد الطرقة الهائلة، فيخيّل إلىّ أنه قد انتهى وأواصل الكتابة، فما أن أفعل حتى يبدأ من جديد وبنفس الترتيب إلى أن يصل إلى ذروته المفزعة !

حاولتُ تجاهل هذا الدق المزعج ومواصلة الكتابة فلم أنجح فى ذلك، فقد كانت الطرقة الأخيرة تفزعنى وتشتت أفكارى ، ولحظة سكونه تداعب أحلامى فى استعادة الهدوء المفقود . ثم أُصاب بالإحباط مع استئناف الدق من جديد .

وبعد عدة محاولات فاشلة مع الكتابة استنجدتُ بالبواب لإنقاذى .. وعرفتُ منه أن مصدر هذا الدق شاب يقيم فى الشقة المواجهة لـ «واحتى » الهادئة مباشرة .. وأنه عازف « درامز » بالفرق الموسيقية ويتطلع للعمل كعازف لهذه الآلة المفزعة ، ولهذا فهو يقضى ساعات اليوم وحتى الهزيع الأخير من الليل فى التدريب على آلته !

ياإلهى !.. أهذه هى « الواحة » التي فررتُ إليها من ضجيج المرور

تحت نافذة مسكنى ، والتى تؤرقنى بالرغم من أنها تقع بالدور السادس؟.. وكيف أكتب « بريد الجمعة » هذا المساء وسط هذا الدق اللعين ؟

تحدثتُ إلى الشاب من شرفة المسكن بواسطة البواب ، وشرحتُ له ظروفى وكيف أن سائقًا من « الأهرام » سوف يحضر إلىّ فى الصباح ليتسلم منى « بريد الجمعة » لكى يلحق بموعد الطبع ، ورجوتُهُ أن يتوقف عن الدق بعض الوقت رحمة بى ! فكان شابًّا مهذبًا واعتذر اعتذارًا رقيقًا عن إزعاجه لى بتدربه المستمر على آلة الدرامز ، لكنه اختتم اعتذاره برجاء عجيب لى : هو أن أصبر عليه « شهرًا » واحدًا فقط أتحمل خلاله هذا الدق المتصل لأنه يستعد لأداء امتحان فى الدرامز يتوقف عليه مستقبله وأمله فى الالتحاق بإحدى الفِرَق الكبيرة، لهذا فهو مضطر للتدريب ليل نهار وإلا ضاعت منه الفرصة !

كدتُ أصرخ باكيًا من قسوته علىّ وهو يرجونى الصبر على هذا الطرق المستمر شهرًا كاملاً وليس ساعة أو بضع ساعة ! ويئستُ من المحاولة فغيرتُ خطتى معه ، وقلتُ له إننى أُقَدِّر « طموحه » الفنى ، وأتوقع له من خلال ما سمعتُ من دقه « الجميل » أنه سيكون عازف درامز عظيمًا فى المستقبل القريب بإذن الله ، لكن النجاح لا يتحقق بالتدريب الشاق وحده ، وإنما بتقسيم الوقت كذلك ومنح الجسم ما

يحتاج إليه من راحة كافية ، ولهذا فإنى أرجوه أن يكتفى من التدريب هذه الليلة بهذا القدر لكى ينهض فى الصباح التالى نشيطًا يواصل الاستذكار بلا كلل !

ولستُ أدرى ، هل اقتنع هذا الشاب بما قلته له ، أم أنه شعر بشىء من الإشفاق علىّ فوعدنى بأن يتوقف بعد ساعة واحدة لأنه يريد أن يحفظ « مازورة » ـ أى جملة موسيقية إيقاعية ـ ضرورية للغاية لنجاحه فى الامتحان ؟ وشكرته بحرارة على إنسانيته وعدتُ لمواصلة الكتابة ، فكنتُ أكتب جملة أو جملتين خلال الطرقات الخفيفة والمتوسطة ، ثم أفزع وأتوقف عن الكتابة أو يسقط منى القلم عند دقة «الدوم» الختامية الرهيبة ، وهكذا إلى أن شبع من التدريب .. وكتبتُ « بريد الجمعة » بعد معاناة شديدة ، وفى الصباح غادرتُ « الواحة » عازمًا مقاطعتها حتى ينتهى هذا الشاب من تدريبه ، ودعوتُ له من قلبى بالنجاح فى الامتحان ، لكن الله سبحانه وتعالى لم يستجب فيما يبدو لدعائى، فقد رجعتُ إلى « الواحة » المهجورة بعد شهر فوجدتُهُ يواصل التدريب فى النهار والليل ، وعرفتُ أن الحظ لم يحالفه فى اجتياز الامتحان، وأنه يتدرب بهمة ودأب ليجد لنفسه فرصة أخرى !

وشهرًا بعد شهر وأنا أسمع طرق الباترى أو الدرامز المزعج .. حتى اعتاد جسمى الانتفاض مع دقة « الدوم » الشهيرة فى ختام جملته

الموسيقية المكررة ، وحتى خُيِّلَ إليّ أننى أصبحتُ أنتفض تلقائيًا قبيل أن يصل الشاب إلى « الدوم » الرهيب ، على طريقة رد الفعل المنعكس الشرطى عند عالم النفس الروسى الشهير بافلوف .

وشهرًا بعد شهر زحف العمران على الشارع الضيق بالسيارات وأجهزة الكاسيت والميكروفونات ، وافْتُتِحَ فى العمارة التى تقع فيها الواحة محل صغير لسباك يأتى إليه صاحبه راكبًا الموتوسيكل بصوته «الرقيق » ! أما الشاب عازف الدرامز فقد راح يتدرب فى الصباح وفى الظهر وفى المساء والليل ، على طريقة لا يأس مع الدرامز ، وتبدد حلم الواحة الهادئة وصومعة الكتابة على طريقة بلزاك ، وأصبحتْ الشهور الطويلة تمضى دون أن أقترب منها ، ثم سلمتُ باليأس من أى أمل فيها فتخلصتُ منها ، وشجعنى على ذلك أنها لم تنل رضا الأسرة من البداية.

أما حين غالبتُ ترددى منذ عامين ، وانتقلتُ من المسكن الذى عشتُ فيه ثلاثين عامًا وألفتُه وألفنى ، وعرفتُ جيرانى فيه وعرفونى ، إلى مسكن أوسع .. فلقد تعلقتُ بالأمل فى أن يكون أقل ضجيجًا لأنه لا يطل على شارع حافل بكل وسائل المواصلات ليل نهار كما كان الحال فى مسكنى السابق ، وكاد هذا الحلم أن يتحقق نسبيًّا بالفعل ،

لولا أننى نهضتُ من نومى فى اليوم الأول من انتقالى إليه على أصواتٍ خُيِّل إلىّ معها أن الشاب عازف الدرامز فى الهرم قد طاردنى إلى مسكنى الجديد وأقام تحته ! فلقد صحوتُ مفزوعًا على طرقات مماثلة لطرقاته على آلته، غير أنها من النوع النشاز الذى لا تناسق فيه ، وعجبتُ من أين تجىء هذه الطرقات المتتالية .. ثم تساءلتُ : وما هذا الصوت الرهيب الذى يشبه ـ مع الفارق ـ نعيق آلة « الأبوا » فى الأوركسترا السيمفونى ؟.. وغادرتُ فراشى متضايقًا ، وخرجتُ إلى الشرفة لأبحث عن سر هذه الأصوات المزعجة ، فإذا بى أرى تحت نافذة غرفة نومى مباشرة ٢٠ أو ٣٠ عازف درامز كعازف الهرم ، يعزفون سيمفونية الدق والخبط والإزعاج ، ولكن بالشواكيش والمناشير والمطارق ، أما آلة « الأبوا » فقد اتضح أنها آلة كشط الخشب الكهربائية..

يا ربى .. إنها ورشة نجارة كاملة تعمل فى الشارع الذى يفصل بين عمارتى والعمارة المقابلة .. وبعد أن زالت الدهشة وتحريتُ الأمر علمتُ أن عمال الورشة ـ وهى ورشة حكومية تابعة لمصلحة الضرائب على المبيعات ـ يضيقون بحرارة الجو داخل ورشتهم فيخرجون بآلاتهم « للعزف » فى الهواء الطلق ، وأن هذا الحال سوف يستمر إلى ما لا نهاية

لأنهم ـ فى هذه الحالة ـ لا يتدربون استعدادًا لأداء امتحان ينتهى فى موعد محدد ، وإنما يمارسون عملهم اليومى الدائم والمستمر .

فما المخرج من هذه الوكسة ؟ وكيف لم أكتشف أمر هذه الورشة السيمفونية عند التعاقد على هذا المسكن ؟

لابد أننى قد تعاقدتُ عليه فى إجازة حكومية كانت الورشة خلالها مغلقة ، وكان الشارع هادئًا نسبيًّا ، ثم انتهت الإجازة وعادت الحياة إلى طبيعتها.

لقد كانت « ملحمة » أخرى علمتُ خلالها أن سكان العمارة قد استعانوا على هذه الورشة الحكومية بشرطة المرافق أكثر من مرة ، فكانت تزيل إشغالاتها وتجبر عمالها على العمل داخل جدران الورشة ، ويستمر الحال هادئًا بعض الوقت ثم يأمنون الحساب ، فيخرجون إلى الهواء الطلق من جديد .. وهكذا ، ولم أفكر فى الاستعانة على هذه الورشة بشرطة المرافق ، وإنما آثرتُ كعادتى أن أسلك الطريق الودى لحل المشكلات ، وشكوتُ حالى إلى زميلة عزيزة لى بـ « الأهرام » لها خبرة فى الشئون الاقتصادية والضرائبية ، وتتعامل مع مصلحة الضرائب كصحفية ، فتحدثتْ الزميلة إلى الرجل الفاضل مدير عام مصلحة الضرائب على المبيعات ، وتفضل الرجل مشكورًا بإصدار

تعليماته للمهندس مدير الورشة بإلزام عمالها بالعمل داخل جدرانها وليس فى الشارع ، وبألا يمارسوا خارجها سوى الأعمال غير المزعجة كدهان الأثاث .

وهدأ الحال بعض الوقت .. ثم هاجت الآلات الإيقاعية من جديد تحت نافذة غرفة نومى ، حتى ترحمتُ على أيام عازف الهرم .

ولجأتُ إلى الصديقة مرة أخرى ، فاستاء الرجل لعدم الالتزام الدقيق بتعليماته ، وأصدر تعليمات مشددة بالالتزام بها .. واستقر الحال إلى حد كبير .. لكننى وعازفى هذه الورشة لا نزال نمارس لعبة « القط والفأر » .. يهدأون بعض الوقت فأرضى وأستريح ،ويهيجون فى أوقات أخرى فأشكو وأتذمر .. ولله الأمر من قبل ومن بعد !!

ألا تعرف مكانًا « هادئًا » بحق أستطيع أن أكتب وأقرأ فيه بلا درامز ولا مطارق .. ولا نعيق للميكروفونات والسيارات والكاسيتات والميكروفونات ؟

نعم .. لا .. ربما !

اسأل أىّ إنسان يقابلك هذا السؤال البسيط : هل أنت سعيد ؟

وسوف تحصل منه غالبًا على هذه الإجابات الثلاث المتناقضة فى نفس الوقت ، وربما أيضًا بنفس هذا الترتيب . إذ سوف يجيبك فى البداية وبغير تفكير : نعم . وقبل أن تطلب منه أن يحدثك عن أسباب سعادته، سيكون قد راجع نفسه « وتذكر » بعض أوجه النقص فى حياته ، وبعض آماله المحبطة وتطلعاته المحرومة .. وهزائمه الشخصية ، «فيصحح » إجابته الأولى مستدركًا ويقول لك : لا !

وقبل أن تطلب منه أن يشرح لك أسباب تعاسته ، سيكون قد راجع نفسه أيضًا للمرة الثانية « وتذكر » بعض ما يرضى عنه فى حياته، وبعض ما أنعمتْ عليه به السماء من نِعَمٍ جليلة يطالبه ضميره الدينى بألا يجحدها أو يتجاهلها لكيلا « تسحبها» منه الأقدار وتعطيها لمن يشكر ربه عليها ، فيستدرك مرة أخرى ويقول لك حائرًا : لا أدرى ، ربما كنت سعيدًا .. وربما لم أكن .. لكن الحمد لله على كل حال!

وهكذا نحن جميعًا أمام هذا السؤال البسيط ، وفى هذه الإجابة الثلاثية تتمثل حيرة الإنسان الأزلية مع السعادة .. وحلمه الأبدى فيها!

وبعض أسباب هذه الحيرة يكمن فى أن الإنسان يعتقد دائمًا أن هناك مَن هم أسعد حالاً منه ، وبالتالى فهو لم يبلغ بعد « مثال » السعادة الذى يتطلع له ويلمس له صورًا براقة لدى الآخرين ، وبعضها يرجع إلى الخطأ البشرى القديم الذى تُصَوِّرُهُ هذه العبارة الحكيمة للأديب الأيرلندى العظيم برنارد شو حين قال : إن كل من تؤلمه ضروسه يظن أن كل من لا يشكون من أسنانهم سعداء !

وبعضها يرجع كذلك إلى أننا كثيرًا ما نجهل أسباب السعادة الحقيقية المتاحة لنا ، ولا نعرف لها قدرها إلا إذا حرمتنا الأقدار منها ، فبكينا عليها وأدركنا كم كنا حمقى وأغبياء حين لم نلتفت إليها فى حينها،

ولم نستمتع بها كاملة حين كانت بين أيدينا ، وأجمل تصوير لهذه الحالة هو ما جاء على لسان الفتاة العمياء « جرتروود » فى حوارها مع القس الذى تبناها وعلمها الأشياء ، فى رواية « السيمفونية الريفية » للأديب الفرنسى أندريه جيد ، حين قالت له :

إن الذين يُبْصِرُونَ لا يدركون سعادتهم .. لكنى أنا التى لا أبصر أدرك سعادة السمع !

ومن أسباب هذه الحيرة أيضًا أننا نحن البشر لا نريد فقط أن نكون سعداء ، بل وأسعد أيضًا من الآخرين .. وبما أننا نتصور غالبًا أن الآخرين أسعد حالاً مما هم عليه بالفعل ، فهيهات أن نبلغ هذه الغاية العزيزة أو نعترف لأنفسنا بما نحن فيه من سعادة.

أما أهم هذه الأسباب وأعمقها أثرًا فى تقديرى فهى أننا نتعامل مع حياتنا فى كثير من الأحيان بمنطق التاجر غير الأمين الذى يريد أن يتهرب من سداد ضرائبه الكاملة على أرباحه ، فيعمد إلى تضخيم الخسائر وتقليل الأرباح ، ليجىء حسابه الختامى فى النهاية خاسرًا ولا تستحق الدولة عنه أية ضريبة !

ولسنا نفعل ذلك بوعى كامل به أوعامدين ، لكنها طبيعة الإنسان التى تميل دائمًا للرثاء للنفس ، وإلى استصغار ما نالته من عطايا الحياة

والرغبة الدائمة فى الاستزادة منها على طريقة البحر - فى المثل الشعبى القديم - الذى يحب الزيادة دائماً ويكره النقصان .

وبهذا الميزان المائل .. كثيرًا ما يعد الإنسان حسابه مع السعادة فيسجل فى الخانة الأخيرة منه أنه حساب خاسر وليس رابحًا !

انظر مثلاً إلى ذلك البطل العربى والخليفة الأموى فى الأندلس «عبد الرحمن الناصر » الذى ولى الحكم وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، واستقبلت الأمة ولايته بالاستبشار والرضا والأمل فى أن يعيد توحيد مملكة العرب فى الأندلس بعد أن تمزقت معظم أطرافها بالعصيان والتمرد ، فهب الخليفة الشاب المحبوب من رعيته وقاد جيوشه لمحاربة الولايات الخارجة عليه ، وأخضعها جميعها ، واسترد كل ما ضيعه أسلافه الضعفاء، وسار النصر والفوز دائماً فى ركابه حتى وصفه ابن خلدون فى تاريخه بعبارة «حِلْفِ السُعُودِ» ، أى حليف السعد والفوز والانتصار ، واستغرق ذلك منه ١٨ عامًا حتى أحكم فرض سلطانه على المملكة ووسع رقعتها ، ثم دعا بنفسه خليفة للأندلس ، وتسمى باسم « الناصر لدين الله » ، واستمتع بالقوة والمجد والنفوذ وحب الجماهير بعد ذلك طوال ٣٢ عامًا ، ثم مات فى السبعين من عمره بعد أن حكم بلاده ٥٠ عامًا حقق خلالها من جلائل الأعمال ما يعجز الخيال عن تصوّره .. انظر إلى هذا البطل المنتصر محبوب الأقدار ماذا

كتب بخط يده عن حياته وهو فى أخريات عمره .. لقد كتب - كما سجل ذلك ابن خلدون فى تاريخه :

أن أيام السرور التى صَفَتْ لى هى يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، ويوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ! إلخ .

وأحصى ابن خلدون أيام السرور هذه فى حياته فوجدها ١٤ يومًا فقط لا تزيد ، وعلق على ذلك قائلاً : فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها لأوليائها ، وبُخلها بكمال الأحوال . فهذا الخليفة حلف السعود المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا وفى الصعود ، ملكها خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام ، فلم تَصْفُ له إلا أربعة عشر يومًا .. فسبحان ذى العزة القائمة .. والمملكة الدائمة ...لا إله إلا هو !

وانظر أيضًا إلى ذلك الشاعر الألمانى العظيم « جوته » الذى عاش بين عامى ١٧٤٩ و ١٨٣٢ ، واستمتع بكل صور المجد والنجاح والثراء والشهرة والتكريم والسعادة الشخصية والحب ، حتى لقد انطوت صفحة حياته وهو يحظى بحب فتاة صغيرة جميلة، فتنت به وأخلصت له الحب وحنت عليه وهدهدت مشاعره حتى الرمق الأخير من عمره .. انظر إليه ماذا قال لصديقه الناقد الأدبى الشاب إكرمان الذى اقترب منه فى سنواته الأخيرة وكتب سيرته الذاتية ؟ لقد قال له :

« لقد عُدِدْتُ دائمًا من المحظوظين ، ولستُ فى الحقيقة أشكو من حياتى ، لكنه من الحق أيضًا أن أقرر أننى لم ألقَ فيها سوى التعب والهم، وأستطيع أن أقول فى النهاية : إننى خلال خمس وسبعين سنة - عمره وقت هذا الحديث - لم أستمتع بالراحة التامة شهرًا واحدًا ، وأن حياتى كانت دائمًا دفعًا مستمرًا للحجر إلى قمة الجبل ، فما أن يصل إلى القمة حتى تدحرجه الآلهة إلى السفح وترغمنى على إعادة دفعه لأعلى من جديد كما فى أسطورة سيزيف الإغريقية » .

ماذا نقول حين نقرأ ذلك .. أو حين نسمع كلامًا مشابهًا له من أى إنسان آخر يُعتبر بحق من المحظوظين و « حلفاء السعود » ؟!

هل نقول ما قاله ابن خلدون : فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها لأوليائها .. وبخلها بكمال الأحوال ؟

أم نقول : فانظر أيها العاقل إلى ميل الإنسان الغريزى للرثاء لنفسه واستصغاره الدائم لعطايا الحياة له ، وتعذيبه لنفسه بحلم أبدى فى «مثال » لا وجود له إلا فى خيال الحالمين بالسعادة المطلقة ؟

إننى شخصيًّا من أنصار هذه العبارة الأخيرة .. ومن أنصار المبدأ الإيمانى العظيم «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » - صدق الله العظيم .. ومن المؤمنين بأن لكل إنسان فى الوجود من سعادته الخاصة ما ينبغى

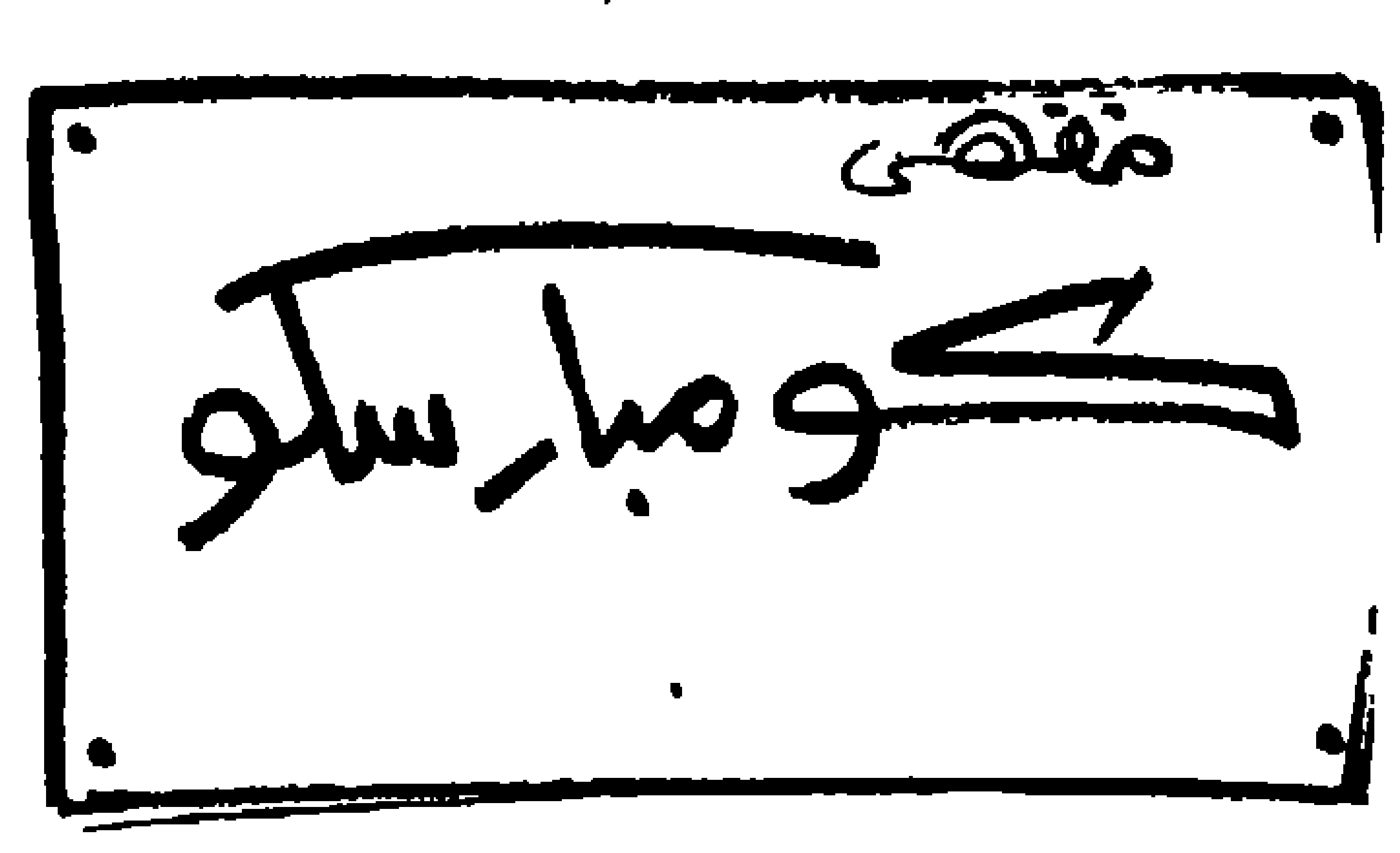
له أن يرضيه ، ومن همه بنفسه ما يدعو ربه لأن يتم نعمته عليه فيكشفه عنه أو يُعينه على قبوله والعيش به باعتباره من الخسائر الإنسانية الضرورية التى لا يخلو منها كشف الحساب الختامى لرحلة أى إنسان فى الوجود مع الحياة .

كما أننى أيضًا من أنصار مبدأ « السعادة الخفية » التى لا يدرك كنهها إلا أصحاب القلوب الحكيمة والبصائر السليمة .. والتى عَبَّرَ عنها ذلك القطب الصوفى الكبير الذى سُئِلَ : كيف يحتمل هو ومريدوه حياتهم المتقشفة الجافة الخالية من كل متع الحياة؟.. فأجاب سائله : « لو علم الحكام ما نحن فيه من نعيم لجالَدونا عليه بالسيوف » .. أى لقاتلونا بالسيوف ليأخذوا منا بعضه ويستمتعوا به مثلنا !

كما أننى أيضًا من أنصار الحكمة الهندية القديمة التى تقول : كل شىء مكروه .. سيصبح مألوفًا لنا بعد حين !

وتعجبنى كثيرًا تلك القصة الأسبانية الشعبية التى تحكى عن رجل كان دائم السخط لأنه لا يملك حذاءً ، إلى أن رأى رجلاً بلا قدمين فرضى عن حفائه لأول مرة، وكف عن الشكوى والسخط منذ ذلك الحين ..

فهل تشاركنى هذا الاختيار يا صديقى ؟.. وبماذا سوف تجيبنى إذا سألتُكَ هذا السؤال البسيط الذى بدأت به حديثى إليك ؟


مقهى
كومبارسكو



الأمــل الأخــير

لم أعرف لهذا الميل الشخصى عندى سببًا حتى الآن !

فأنا - ومنذ فجر شبابى - أميل للاقتراب من المبتدئين والمغمورين وأصحاب الأدوار الهامشية فى الحياة ، أكثر مما أميل للاقتراب من الكبار والنجوم وأصحاب الأدوار الرئيسية فى مجتمعهم .

فإذا نزلتُ مثلاً بفندق كبير بمدينة ساحلية أوفى الجنوب ، اهتممتُ بالتعرف على صغار العاملين فيه بأكثر مما أهتم بالتعرف على مديره الخطير . وإذا حضرتُ حفلاً للموسيقى الكلاسيك فى مصر أو فى الخارج وجدتُ عينى تتسلل بعد الإعجاب المبدئى بالمايسترو الكبير الذى تتركز حوله الأضواء ، لتنسحب منه وتستقر على عازفى الآلات الهامشية فى الصفوف الخلفية . ، وكلما تراجعتْ أهمية الآلة التى يعزفها العازف، كلما ازداد اهتمامى بتأمله ورثائى الخفى له لانحسار الضوء عنه ، وإذا شاهدتُ فى التليفزيون فاصلاً غنائيًّا وجدتُنى لا إراديًّا أتأمل باهتمام أفراد الكورس الذين يتوارون خلف أفراد الفرقة الموسيقية ويؤدون دورهم فى الظل ، وأتمثل مشاعرهم وهم يجدون الأضواء تتغافل عنهم دائمًا وتتركز على النجم الساطع فى مقدمة المسرح !

وقد انسحب ميلى هذا أيضًا إلى علاقاتى الاجتماعية ، فوجدتُنى لا أسعى غالبًا إلى صداقة أحد من الكبار والمهمّين ، ولا أحفل بالاقتراب من الشخصيات البارزة فى الحياة العامة ، ولقد عرفتُ بعضهم وهم فى مرحلة الكفاح وإثبات الذات .. فما أن حققوا صعودهم وأصبحوا نجومًا ساطعة فى السياسة والحكم والإدارة .. حتى وجدتُ طبعى يغلبنى - وكل إنسان محكوم بسجن طبعه كما يقول توفيق الحكيم - ووجدتُنى لا أتصل بهم إلا إذا اتصلوا بى ، ولا أسعى لزيارتهم فى

مكاتبهم كما كنت أفعل وهم فى مرحلة الكفاح والتطلع للمستقبل الواعد .

ولابد أن هذا الميل نفسه كان هو المسئول عن صداقتى الشخصية فى إحدى مراحل حياتى لواحد أو اثنين من العاملين فى المجال الفنى ممن يطلقون عليهم لقب «الكومبارس » ، فلقد عرفتهم خلال سهراتى الليلية فى مرحلة الشباب ، ووجدتُنى مهتمًّا بأمرهم وشغوفًا باكتشاف عالمهم الخاص ، ومشاركتهم اهتماماتهم ومشكلاتهم وأحلامهم العاجزة لأنفسهم بالنجاح الذى لا يجىء أبدًا .

وفى هذه الفترة من حياتى كنت أقضى سهراتى فى مقهى الفيشاوى، أو فى مقهى سوق الحميدية ، حيث كانت تتجمع شلة كبيرة من هؤلاء المغمورين يتسامرون ويتبادلون الأخبار والتعليقات على ما يجرى فى الوسط الفنى ،ويحلمون دائمًا بشىء عزيز يمثل بالنسبة لهم الحل السحرى لبطالتهم ، وديونهم وإحباطهم ، هو «الأوردر».

و «الأوردر » هو الكلمة الإنجليزية التى تعنى أمر العمل ، وحين يتلقاه أحدهم من أحد مساعدى المخرجين يبتهج بقرب انفراج الأزمة، ويتهلل استعدادًا للعمل القريب ، ويدعو الله أن يكون لأيام عديدة وليس ليوم واحد أو يومين . ولأن من عادتى أيضًا أن أشارك

أصدقائى اهتماماتهم وهمومهم ، فلقد أصبح لكلمة « الأوردر » هذه قيمة كبيرة عندى مع أنى لا أعمل بالمجال الفنى ، لأنها تعنى بالنسبة لى ابتهاج الأصدقاء ، وانتعاش أحوالهم المؤقت قبل أن يرجعوا مرة أخرى للبطالة والمعاناة وانتظار الفرج ، فضحكتُ مع هؤلاء الأصدقاء مبتهجًا حين يجىء « الأوردر » ، وتجهمتُ معهم مكتئبًا حين يطول انتظاره ، وشاركتُهم التندر على متعهد بوفيه نقابتهم الأمى الذى كانوا يستدينون منه حين كان يتسلم لأحدهم هذا « الأوردر » فى غيابه ، فيستقبله بابتهاج حين يجىء ويبشره بالخبر السعيد قائلًا له : مبروك جالك «كوردر » !

ولأن المرحلة كلها كانت مرحلة انغلاق اقتصادى تام .. وليست هناك محطات تليفزيونية عربية ، ولا محطات فضائية ، ولا شركات إنتاج كثيرة ، فلقد كان الرزق شحيحًا للغاية ، ولم يكن هناك من مصدر رزق لهؤلاء المغمورين إلا ما يتلقونه من أوامر العمل هذه من بعض مخرجى السينما والتليفزيون والإذاعة مقابل جنيهات قليلة ، ولهذا فقد كان « المخرج » بالنسبة إليهم كائنًا أسطوريًّا رهيبًا يملك أن يفتح لأحدهم أبواب السعادة والرزق ، ويملك أيضًا أن يغلقها دونه . ولأن المغمورين كثيرون ، والطلب على العمل قليل ، فلقد كان هؤلاء المغمورون يتنافسون فى طلب ود هؤلاء المخرجين ومجاملتهم .. بل

ونفاقهم أيضًا بلا حرج ، ويعترفون لأنفسهم ولغيرهم بهذا النفاق بلا أية محاولة للادعاء أو التظاهر ، ويقرون بأنهم ينافقون هؤلاء المخرجين بكل الحيل المشروعة لكى يحصلوا من ورائهم على رزقهم الشحيح .. وكان هذا هو أكثر ما يعجبنى فيهم .. إذ كنت أقارن « نفاقهم » غير الضار الذى اضطرتهم إليه قسوة الحياة ، بنفاق غير المضطرين إليه من عباقرة النفاق السياسى والإدارى ، طلبًا للمزيد من الصعود والترقى .. أو طلبًا للبقاء فى المناصب العليا ، وأميل لالتماس العذر لهؤلاء المغمورين البؤساء فى نفاقهم .. ولا أجد للعباقرة أى عذر فى نفاقهم الممجوج والضار سياسيًّا وإداريًّا وعلى كل المستويات ، فالنفاق يفسد القيادات ويهز ميزان العدل فى أيديهم ويخل بمبدأ تكافؤ الفرص .

وبعض القيادات الوزارية والإدارية ، حتى لو صمدت لأمواج النفاق العاتية فى البداية .. فإنها قد لا تصمد له حتى النهاية .. لأن النفس تميل بطبعها لسماع ما يرضيها حتى ولو تشككتْ فى صدقه .

ولأن أحد السياسيين القدامى قد قال عن أمير مقاطعته فى العصور الوسطى متحديًا رفاقه من الحاشية : « أستطيع أن أحول هذا المأفون إلى مجنون خلال بضعة أيام .. بالنفاق » .. لهذا فقد تسامحتُ مع نفاق هؤلاء البؤساء ، وتعاطفتُ وضحكتُ لبعض فنون نفاقهم المبتكرة ،

ولم أفعل نفس الشىء مع النفاق الآخر القاتل للتواضع والعدل والمساواة بين البشر .

وكنتُ بطبيعتى فى حب تأمل الأشياء والأشخاص أستحث هؤلاء المغمورين إذا جلستُ إليهم ليرووا لى عن أساليب « المجاملة » التى يتبعونها مع المخرجين ، فيقولون لى إنها تشمل التطوع لتقديم كل أنواع الخدمات الشخصية بغير أن يطلبها منهم المخرج .. لأن للمتطوع فضلاً يزيد عن فضل الملبِّى للطلب أو الرجاء ، وقد تفوق أحدهم فى قضاء هذه المصالح الشخصية فأصبح اسمه لديهم فى الوسط الفنى كله «عبدالحميد مشاوير » ، لنشاطه فى قضاء المشاوير الخاصة بالمخرجين والمنتجين .. وتفوق آخر فى أعمال السكرتارية المجانية لبعض المنتجين ، فأصبح اسمه المعروف به بينهم هو « حسن سكرتارية » ، وكل ذلك إلى جانب الإشادة المستمرة بعبقرية المخرج الفريدة وموهبته الفذة التى أثرت - عن غير قصد - على طبقة الأوزون فى السموات العلا ! إلى جانب مجاملة المخرج فى كل مناسباته الاجتماعية والعائلية والمناسبات السعيدة والمناسبات الحزينة .

ومع طول العشرة ألفتُ حيل هذه المجاملات منهم .. واعتبرتُها من ضرورات العمل بالنسبة إليهم ، لكننى وجدتُ نفسى ذات ليلة مبهورًا

بحيلة مبتكرة من هذه الحيل لم أسمع بها من قبل .. ولم تصادفنى حيلة مثلها فى كل ما قرأتُ من قصص تشيكوف وجوجول ودستويفسكى عن النفاق الإدارى الذى كان شائعًا فى روسيا القديمة فى زمنهم . فلقد كنتُ جالسًا فى مقهى سوق الحميدية ذات ليلة مع صديق من هؤلاء المغمورين ، فجاء إلينا زميل له فى المهنة لا أعرفه وجلس معنا ، ثم راح يشكو لصديقى من إحباطه ويأسه من الفرج ، لأن « أولاد الأفاعى » من المغمورين الآخرين لم يدعوا له أية فرصة « للاستفادة » من مناسبة وفاة والدة المخرج فلان التى انتقلت إلى رحمة ربها صباح نفس اليوم !

واجتذب الحديث اهتمامى بشدة ، فأصغيتُ إليه بكل جوارحى ، وسألتُ صديقى عما يقصده بـ « الاستفادة » من مثل هذه المناسبة الحزينة ! فابتسم ابتسامة العارف ببواطن الأمور وطلب من زميله أن يوضح لى مقصده ، فروى الرجل أنه قد علم بوفاة والدة المخرج فى الصباح ، فتوجه على الفور إلى السرادق الذى ستشيع منه إلى مثواها الأخير ، وقدم للمخرج عزاءه الحار وهو دامع العين ، وحاول الوقوف إلى جواره ، لكن أكتاف المنافسين أبعدَتْهُ عنه بعنف ،فتعلق بالأمل فى أن يشارك فى حمل الجثمان عند خروجه من المسجد إلى العربة التى ستنقله إلى المستقر الأخير ، لكن المنافسين لم يدعوا له أيضًا أية فرصة للاقتراب منه ، وكلما كافح لخلق ثغرة فى زحام أجسامهم حوله ، دفعه «المجاملون » الأشداء من زملائه بعيدًا عنه ، ولم يفقد الأمل بالرغم من

ذلك ، فما زالت هناك فرصة أخرى حين تصل العربة للمدافن ، ويتم إنزال الجثمان هناك ، فهرول وراء العربة إلى المدافن .. وترقب فرصته بانتباه شديد .. لكن .. قاتل الله أولاد الأفاعى ، فلقد أحاطوا بالجثمان مرة أخرى فى حلقة محكمة ولم يتيحوا له أية فرصة لأن يراه المخرج وهو يشارك فى حمله باكيًا ، فيعرف مدى إخلاصه له ، ويتذكره وهو يصدر أوامر العمل فى الفيلم الجديد ، فماذا يفعل وسط هؤلاء الأبالسة !

وعند هذا الحد من قصته توقف عن رواية القصة ، وقال لصديقه إنه لم يبق له بعد فشل كل محاولاته السابقة إلا أن يضرب ضربته الأخيرة ويستخدم مع المخرج «حكاية النور » كآخر أمل له قبل ضياع الفرصة .

وقبل أن يواصل حكايته ، سألتُهُ مندهشًا : ما هى أولاً حكاية النور هذه ؟ فأومأ إلىّ صديقى المغمور بيده طالبًا منى الصبر لأعرفها من سياق الحديث وهو يبتسم ابتسامة من يعرف سرها ويتوقع أن يدهشنى!

وواصل الرجل حديثه ، فقال إنه حين يئس من كل أمل فى حمل الجثمان رتب فى ذهنه أن ينزل وراءه إلى مستقره الأخير ويبقى فيه إلى أن تنتهى كل المراسم الحزينة ، ثم يخرج إلى المخرج منفعلاً ومتأثرًا ويقول له حكاية النور .. وبغير أن يتوقف ليشرحها قال إنه قد فعل ما رَتَّبَ له بدقة ورجع من حيث كان ، وتقدم إلى المخرج منفعلاً ، وهمّ بأن ينطق

بـ «الحكاية» ، فإذا به يجد زميلًا له كانت خطواته إلى المخرج أسرع من خطوته .. ولسانه أسبق من لسانه ، يقول له بصوت أكثر انفعالاً واهتياجًا :

- رأيتُهُ بعينى والله يا بيه .. رأيت النور يحيط بالمرحومة فى قبرها ويحول ظلامه إلى نهار !

فوقف الرجل مبهوتًا بعد ضياع الأمل الأخير ، وعقد الإحباط لسانه فلم يستطع - كما قال - حتى أن يستفيد من نفاق زميله فيؤيد زعمه للمخرج ، ويدعم شهادته بأن السيدة والدته من الأطهار الأبرار الذين يحيل الله سبحانه وتعالى قبورهم إلى نعيم .

واختتم الرجل حديثه متسائلاً فى مرارة :

- كيف نستطيع التقاط أرزاقنا وسط هؤلاء الأبالسة ؟!

فإن كنتُ قد استمتعتُ فى حياتى بقصة قرأتُها أو سمعتُها فإنى لم أستمتع بقصه كما استمتعتُ بهذه القصة وتعجبتُ منها وتأملتُها طويلا.

ولسنوات طويلة ظلت أحداث هذه القصة التى يعجز خيال أبرع المؤلفين عن ابتكارها حية فى مخيلتى ، أتذكرها فى مواقف عديدة .. وأسترجع أحداثها .. وأعجب لمبتكرها المبدع الخلاق فى فن النفاق .

ولقد كان أكثر ما أثار دهشتى هو أنها قصة مألوفة لم تُثِرْ دهشة صديقى المغمور حين سمعها معى ، وفهمتُ من ذلك أنها حيلة مجرَّبة تم استخدامها من قبل مع بعض المخرجين وحققت نتائجها المرجوة ،

لكن الجديد هذه المرة هو أن الزميل الذى وضع كل أمله فيها ، قد صدم بأن هناك من سبقه إليها بلحظات فأفسد عليه خطته .. لعنة الله عليه .

أما هذا الصديق المغمور الذى شاركتُهُ سماع هذه الحكاية العجيبة فقد انتقل إلى جوار ربه منذ سنوات يرحمه الله ، وأما هذا الزميل «المحسور » فما زلتُ أفتش عنه كلما شاهدت عملاً من الأعمال التليفزيونية والسينمائية لأطمئن إلى أنه يكسب رزقه ويواصل حياته فى أمان . وكلما صادفتُهُ فى أحد هذه الأفلام تأملتُه باهتمام شديد .. وتساءلت : هل ما زال يستخدم حكاية النور هذه فى تسيير أموره ؟ أم أن فنون النفاق قد تجاوزت هذه الحيل القديمة ، وتحولت إلى فنون أشد تركيبًا وتعقيدًا .

ولأنى انقطعتُ للأسف عن صحبة هؤلاء المغمورين منذ سنوات طويلة ، فلستُ أستطيع الإجابة على هذا السؤال ، لكننى أستطيع من ناحية أخرى أن أسجل - بانبهار - مدى التطور التكنولوجى الخطير الذى ارتقت إليه فنون النفاق فى عالم الإدارة والسياسة ، حتى أصبحتْ « حكاية النور » هذه - إلى جوارها - حيلة بدائية من العصر الحجرى .

ولله الأمر من قبل .. ومن بعد !!

هـات « شيلن »

كنت مسافرا من القاهرة إلى مدينتى الصغيرة بالوجه البحرى فى زيارة عائلية ، فتوقفتُ أمام استراحة من استراحات الطريق لفنجان من القهوة ..

جلستُ فى حديقة الاستراحة أتأمل المكان من حولى وأرشف القهوة فى هدوء لأستعين بها على تجديد نشاطى ومواصلة الرحلة ، فإذا بى أرى أمامى طفلاً صغيرًا يرتدى « تريننج سوت» رثًّا .. ينظر إلىّ من فتحة فى سياج الحديقة ويحدِّثنى بما لم أميزه من كلمات . كرر حديثه المبهم إلىّ .. فطلبتُ منه أن يرفع صوته قليلاً لأسمعه ، وسألتُهُ عما يريد، فقال بصوت أعلى نسبيًّا : أقول لك .. هات « شِلِن » !

ضحكتُ بالرغم منى .. وتأملتُ مظهره البسيط .. ومطلبه المتواضع، وتساءلتُ : متى سمعتُ هذه الكلمة المنقرضة آخر مرة «شِلِن » ؟!

إن أمثاله فى القاهرة والمدن الكبرى يطلبون جنيهًا كاملاً ، وقد لا يرضون بأقل من نصفه ، فلماذا تتواضع الأحلام كلما ازداد الحال تواضعًا وبؤسًا ؟!.. أشرتُ إليه أن يقترب ، وتحدثتُ إليه للحظات .. ثم انصرف جاريًا وأنا أرقب تعبيرات وجهه المترددة بين الشكر .. والشك ، إلى أن اختفى وراء السياج ، وأنا ما زلتُ أفكر فى هذه المفارقة الشائعة من مفارقات الحياة .. نعم ، لماذا تتواضع الأحلام أكثر كلما ازداد الحال صعوبة وجفافًا ، بدلاً من أن يحدث العكس كما يقضى بذلك المنطق ؟

أنهيتُ قهوتى فى سلام وعدتُ لمواصلة الرحلة ، فإذا بوجه هذا

الطفل المتردد يعيد إلى ذاكرتى ذكرى بعيدة كل البعد عن هذا الموقف ، لكنها بالرغم من ذلك تعكس نفس المفارقة ..

ففى الستينيات كنت محررًا بقسم التحقيقات الصحفية بـ «الأهرام»، وأقوم إلى جوار عملى به بكتابة بعض التحقيقات الرياضية فى ملحق الرياضة مع شيخ النقاد الرياضيين العرب المرحوم الأستاذ نجيب المستكاوى ، وكان صديقى فنان الكاريكاتير الكبير المرحوم محمد عبد المنعم رخا قد عُيِّن سكرتيرًا عامًّا لنادى الترسانة ، فوجدتُ نفسى ـ وقد كنتُ من قبلها أقضى معه سهراتى كل ليلة ـ أتردد عليه فى النادى كل يوم وأعايش شواغله وهمومه ومشاكله الجديدة .

وفى كل مساء تجتمع شلة الأصدقاء التى كنت ألازمها ـ ذلك الوقت ـ فى حديقة النادى ، فلا نغادرها إلا وهو يغلق أبوابه عند منتصف الليل ، وقد نستكمل السهرة فى بيت المرحوم رخا القريب بعد ذلك . وفى هذه الجلسات عرفتُ نجم الترسانة الكبير وقتها حسن الشاذلى واقتربتُ منه وصادقتُه ، وعرفتُ أيضًا توءمه وشريكه فى الثنائى الخطير الذى كانا يشكلانه فى الملعب ، مصطفى رياض ، وقد كان كل منهما لا يذكر اسمه إلا مقرونًا بالآخر ، ويرتبط مصير أية مباراة يؤديانها بهما ، فتفوز الترسانة إذا أجادا ، وتنهزم إذا تخلى عنهما التوفيق ، كما كانا يتنافسان كل موسم على لقب هدّاف الدورى ، ويفوز

به غالبًا حسن الشاذلى برصيد من الأهداف يبدو إلى جواره رصيد هداف الدورى الآن شديد التواضع ، فلقد نال اللقب مرة بإحرازه ٢٨ هدفًا فى موسم واحد ، ومرة أخرى بـ ٢٥ هدفًا .. ولم تقلّ أهدافه أبدًا فى أى موسم عن ٢٠ هدفًا !

وقد نشرتُ وقتها تحقيقًا طريفًا عن حسن الشاذلى فى « الأهرام » قلت فيه : إنه وتوءمه يهزمان الفرق الأخرى « بالنصب على الطريقة الأمريكية »، فقد كان مصطفى رياض ماهرًا فى المراوغة ويجيد الالتحام بالمدافعين فلا يجدون مفرًّا من عرقلته ، فإذا مضى الوقت دون أن ينجحا فى التسجيل تسلم رياض الكرة ونفذ خطته المدبرة والتحم بالمدافعين قرب منطقة الجزاء ثم ارتمى على الأرض ، ويأتى حسن الشاذلى من الخلف صائحًا فى الخصوم : حرام عليكم حتموّتوا الواد ! ..

ويصفر الحكم .. ويضع الشاذلى الكرة على الأرض ويسدد «الفاول» ، فتنطلق الكرة كقذيفة المدفع فى مرمى الخصوم !

وكان الشاذلى يكاد يسجل هدفًا من كل كرة ثابتة على حدود منطقة الجزاء ، مهما كان دفاع المدافعين ، وظهر التحقيق فى « الأهرام » وسعد به الشاذلى ، وضحك لعبارة « النصب على الطريقة الأمريكية » هذه

كثيرًا ، وصارحنى بأنهما لا يلجآن إلى هذه الطريقة إلا إذا عجزا عن التسجيل بالطريقة الطبيعية !

ثم ذهبتُ ذات يوم إلى النادى ، فوجدتُ المرحوم رخا وشلة الأصدقاء من أعضاء مجلس الإدارة والنادى مهمومين بأمر يشغل خاطرهم ، وتساءلتُ عما حدث ، فانتحى بى أحدهم وروى لى أن الشاذلى ورياض قد قارب عقدهما على الانتهاء وبدأ النادى يفاوضهما لتجديده ، فإذا بهما يطلبان من النادى مبلغًا باهظًا لكلٍّ منهما مقابل التوقيع ، إلى جانب زيادة بسيطة فى المرتب الشهرى ، ومع أنه لم يكن مسموحًا وقتها بانتقال اللاعبين بين الأندية حتى نهاية العمر إلا بموافقة النادى الأصلى ، لكن الأمر مثَّل مشكلة كبيرة للنادى ، لأنه لو لم يلبِّ مطالب اللاعبين أو يتوصل معهما إلى حل وسط ، فسوف يمتنعان عن اللعب أو يلعبان بلا روح ، وقد فشلت كل الجهود معهما لأن يتنازلا عن بعض غلوائهما ويقبلا بمبلغ معقول ، ولم يعد هناك مفر من الصدام معهما !

واستمعتُ إلى ما يقوله لى عضو النادى باهتمام شديد ، وشاركته همه بهذه الأزمة الطارئة ، ثم تساءلتُ عن المبلغ الباهظ الذى يطلبه اللاعبان ، فزفر قبل أن يجيبنى قائلاً فى مرارة : خمسمائة جنيه لكل منهما يا سيدى .. تصور ؟ !

ودار الحديث بعد ذلك طوال الجلسة عن هذا المطلب « العجيب » ، وقال أكثر من عضو : ماذا جرى لعقل هذين اللاعبين ؟.. هل أدارت الشهرة رأسيهما ؟.. هل تناسيا ما قدمه لهما النادى ؟.. هل .. وهل .. إلخ .

وانصرفتُ مهمومًا بهذه الأزمة التى تشغل خواطر أصدقائى ، وفى اليوم التالى كتبتُ خبرًا عن مطالب النجمين وقدمتُهُ للمرحوم المستكاوى ، فصدرت الصفحة الرياضية « بالأهرام » صباح الغد ، وفى صدرها عنوان مثير يقول : الشاذلى ورياض يخرجان على الترسانة بمطالب لا معقولة !!

وللصدفة البحتة فقد كان اللاعبان سيشاركان فى نفس اليوم فى مباراة بملعب الترسانة ، وذهبتُ إلى النادى لمشاهدتها ، فاستقبلنى رئيس النادى وأعضاء مجلس الإدارة بحفاوة شديدة ، لأننى قد أسهمتُ بنشر هذا الخبر فى مساندة موقف النادى خلال مفاوضاته مع اللاعبين ، ولأنهما قد « اضطربا » بشدة لإذاعة هذا السر المكتوم الذى قد يثير عليهما « حفيظة » باقى اللاعبين ، ومن المحتمل الآن أن يقبلا بحل وسط .

وبدأت المباراة ، فكررتْ أحداثها طبيعة الدنيا الغادرة وتقلباتها الغريبة فبعد قليل من بدايتها سجل الشاذلى بمساعدة رياض هدفًا فى

مرمى الخصوم ، فانفجر جمهور الترسانة فى المدرجات يغنى لهما ويشيد بهما ، ثم تغيرت الأحوال بعد ذلك فسجل الخصوم هدفًا ، فصمت الجمهور وران الصمت الثقيل على الملعب ، ثم تفوق الخصوم وأحرزوا هدفًا آخر ، وبدا أن المباراة قد ضاعت من الترسانة ، فإذا بنفس هذا الجمهور الذى كان يغنى للشاذلى ورياض منذ حين ، ينفجر فيهما صابًّا عليهما لعناته وسبابه .. وتنتهى المباراة فيحاصر الجمهور الفريق فى الملعب يريد الفتك بنجميه المحبوبين وصائحهم يصيح فى هتاف استنكارى جماعى رهيب : خمسمية .. يا حرامية ؟!.. ثم لا يغادر الجمهور الملعب إلا بعد وقت عصيب ، ووجدتُ نفسى من حيث لا أريد طرفًا فى أزمة حادة بين النادى وجمهوره وبين اللاعبَيْن الكبيرين ، وعتب علىّ الشاذلى نشرى لهذا الخبر لأن نشر « الرقم الكبير » الذى طلبه هو ورياض قد أثار مشاعر الجماهير المحرومة ضدهما ، فانقلبتْ عليهما بعد أن كانت تغنى لهما !

وحاولتُ بقدر جهدى تطييب خاطره ، والاعتذار له عن نشر الخبر بضرورات المهنة التى لم تكن تسمح لى بتجاهل مثل هذا الخبر الصحيح ، وأكدتُ له أنه يستطيع بإجادته اللعب فى مباراة واحدة أن يستعيد حب الجمهور له . وغناءه .. وأناشيده ..

ومرت الأزمة بسلام .. وشغلتنى مشاغل الحياة بعد ذلك عن

التردد على النادى ، ثم تفرغتُ للتحقيقات الصحفية وانتهت هذه الحقبة الرياضية من حياتى ، ولم أعرف هل « رضخ » النادى لمطالب لاعبيْه الكبيريْن ؟ أم أن ما حدث قد هز إصرارهما على تقاضى هذا المبلغ « الباهظ » فقبلا بمبلغ أقل منه ؟!

لكنى أعترف لك الآن أننى كثيرًا ما أستعيد فصول هذه القصة فى ذاكرتى كلما قرأتُ عن مطالب لاعبى العصر الحالى المادية من أنديتهم ، أو قرأتُ عن المبالغ «الباهظة » بحق التى يتعاقدون بها معها .. وأننى كلما تذكرتُها شعرتُ بشىء من الخجل من نفسى ، وأحسستُ بأننى مدين باعتذار متأخر لهذين اللاعبيْن الموهوبيْن اللذيْن أثَرْتُ ضدهما ـ من حيث لا أقصد ـ مشاعر جمهور ناديهما بنشرى لهذا الخبر !

صحيح أن مبلغ الخمسمائة جنيه وقتها كان يكفى لأن يحصل من يملكه على شقة بالإيجار فى مصر الجديدة ، وأنه أيضًا كان يكفى غالبًا لتكاليف زواج شاب ، وأن مرتب رئيس الجمهورية وقتها لم يكن يزيد على هذا المبلغ جنيهًا واحدًا ، لكنه يظل بالرغم من كل ذلك ، وبالمقارنة بما أصبح عليه الحال الآن فى بورصة اللاعبين ، مثل هذا «الشلن » الذى سألنى إياه ذلك الطفل الصغير فى استراحة الطريق .

كما يظل أيضًا انعكاسًا لروح العصر كله وقتها ، التى كانت فيه

المطالب بسيطة ، والأحلام متواضعة ، فى حين تسود العصر الآن كله روح كروح شاعر العرب المتنبى حين يقول :

إذا غامرتَ فى شىءٍ مَرُومٍ ... فلا تَقْنَعْ بما دون النجومِ

فطعمُ الموتِ فى شىءٍ حقيرٍ ... كطعمِ الموتِ فى شىءٍ عظيم !

كما تسوده أيضًا فى بعض جوانبه روح ذلك المثل الإنجليزى القديم الذى يقول : إذا ضربتَ فأوجع .. فإن الملامة واحدة !!

مع أنه يستحيل عمليًّا وإنسانيًّا أن تكون الملامة واحدة لمن يضربك بوردة ، ولمن يهوى فوق رأسك بمطرقة ثقيلة ، لكنه هكذا يبرر الأمر دائمًا لنفسه مَن يريد أن «يفلسف» القسوة والتجرد من دوافع الرفق والعطف الإنسانى .

كما تسوده أيضًا روح كلمة ذلك الفيلسوف الأمريكى المعاصر الذى يقول لك : إنك إذا طلبتَ من الدنيا القليل فلن تحصل على الكثير، وإن طلبتَ منها الكثير فإنك إن لم تحصل عليه فلسوف تحصل - على الأقل - على ما هو أكثر من القليل .. وإن كان هذا الفيلسوف «البراجماتى» لا يحدثنا كذلك عن الإحباط المرير الذى يعانيه مَن يطلب الكثير فلا ينال إلا ما هو أكثر من القليل ، ولا يحدثنا عن حالة الرضا عن النفس التى يشعر بها من يجعل أهدافه فى متناول يديه ، ولا يطلب إلا ما ترشحه له قدراته وظروفه وإمكانياته .

لكنها روح العصر لدى الكثيرين للأسف ، وهى الروح التى صورها الكاتب المسرحى الأمريكى آرثر ميللر فى مسرحيته « الثمن » وقال فيها : « إن الأمر يبدأ دائمًا بأن تطلب لنفسك الكثير ، فتقضى العمر لاهثًا وراءه فى سباق متصل كسباق الفئران المذعورة إلى أهداف متحركة ، تبتعد عنها كلما اقتربتَ منها ، فلا أنتَ قد حققتَ ما فَقَدَتْ روحك وسلامك النفسى من أجل الوصول إليه .. ولا أنتَ قد قنعتَ بما حققتَ ، أو تواضعتَ بأحلامك لتتناسب مع قدراتك وتستريح »..

ولعلى أتخيل الآن ماذا عسى جمهور الكرة أن يقول فى هذه الأيام إذا غضب على لاعب أرهق ناديه بمطالبه الباهظة حقًّا .. أتراه يصيح مستنكرًا كما صاح فى وجه الشاذلى ورياض : خمسمية يا حرامية ؟ أم أن الأكثر ملاءمة لروح العصر الآن هو أن يهتف قائلاً : نص مليون .. يا مجنون ؟

ولعلى أيضًا لو خُيِّرتُ بين الحالين .. وبين روح تلك الأيام وروحها الآن ، لاخترتُ الأحلام البسيطة ، والسعادة الحقيقية ببلوغ الأهداف قريبة المنال ، ولفضلتُ ألا تتجاوز مطالبى من الحياة مثل هذا « الشلن» المتواضع ، إذا كان الفوز به متاحًا بلا خسائر معنوية أو أخلاقية ، وبغير أن يفقد الإنسان قدرته على السعادة وتذوُّق طعم الأشياء .. فهل تشاركنى فى ذلك .. أم أن لك رأيًا آخر ؟

أرجوك .. أعطني عمرك

كم « عمرًا » يحتاج إليه الإنسان لكى يتعلم
من أخطائه وتجاربه.. و«يفهم» الحياة حق
فهمها ويُحسن التعامل معها ومع البشر ؟

فى تقديرى أنه يحتاج إلى «عمرين » على الأقل أو حياتين ، يتخبط فى الأولى منهما فى التجربة والخطأ .. ويدفع ثمن أخطائه وعثراته فيُفْجَعَ على سبيل المثال فى صداقة صديق لم يكن يستحق صداقته ، وفى عدم وفاء شريك لم يحسن هو اختياره ، ويكتشف سوء تقديره أو اختياره فى هذه المسألة أو تلك ، ويجرِّب هذا الطريق فيكتشف أنه لم يخلق له من الأصل ، وإنما لطريق آخر فى الحياة .. ثم تنتهى « المرحلة الأولى » بخيرها وشرها فى موعدها المقدور.. ويبدأ من جديد رحلة « الحياة الحقيقية » الخالية من الأخطاء والعثرات وسوء التقدير وسوء الاختيار، فلا يكرر خطأ وقع فيه فى حياته الأولى ، ولا تفلت منه هفوة لسان ندم عليها أو دفع ثمنها غاليًا فى « جاهليته » السابقة ، ولا يفقد صديقًا فقده من قبل بحماقته وقلة خبرته السابقة بالنفس البشرية ، ولا يستثير على نفسه عداء الآخرين باندفاعاته القديمة ورعونته الماضية ، ولا يمضى فى طريق لم تكن ترشحه له مؤهلاته وقدراته من الأصل .. ولا يشقى لبلوغ هدف أدرك فى «حياته السابقة » أنه لا يستحق أن يشقى الإنسان للوصول إليه على حساب أهداف أخرى أكثر قيمة وأكثر قدرة على تحقيق سعادته الحقيقية .

ويمضى فى الحياة مسلحًا بمعرفة ثمينة بنفسه وخبرة كبيرة بالحياة والبشر من حوله .. فيحيا سعيدًا آمنًا من الأذى والخداع .. والأخطاء

والعثرات .. تحيط برأسه هالة من الحكمة وحسن الإدراك والفهم الصحيح لكل الأشياء !

أمنية مستحيلة ؟

هى كذلك بالطبع .. لهذا فلقد حلم بها كثيرون من العقلاء والحكماء وتمنوها لأنفسهم ، فكتب الأديب الإنجليزى الشهير « د . هـ . لورانس » ذات يوم يقول : ليت للإنسان حياتين .. الأولى يرتكب فيها الأخطاء والحماقات ، والثانية يتعلم فيها من أخطائه وتجاربه !

وقال الأديب الأسبانى المغمور فى رواية « الشطار » للأديب المغربى محمد شكرى : حين يتقدم بنا العمر فإننا نتمنى أن يبدأ كل شىء من جديد لكى نتعلم من أخطائنا .. ولأن الإنسان الحقيقى هو الذى يعرف كيف ينتهى وليس كيف يبدأ !

وقال الأديب الأيرلندى الكبير برنارد شو : إنه من المؤسف أننا حين تبلغ مرحلة الحكمة وتتحقق لنا السيادة على أنفسنا والسيطرة على أهوائنا ، فإن رحلة العمر تكون قد آذنت بالمغيب ، ولم يتبق لنا الكثير لكى نستفيد فيه بالحكمة التى اكتسبناها بعد التخبط الطويل فى التجربة والخطأ !

وكثيرًا ما نقرأ أو نسمع أحد البارزين فى بعض مجالات الحياة يقول : لو رجعت الأيام لما فعلتُ كذا وكذا .. ولفعلتُ كذا وكذا ..

لكن الأيام لا ترجع أبدًا .. ومياه النهر لا تعود للأسف إلى منابعها ، وإنما تمضى إلى مصبها فى طريق محتوم .

ولم يبق لنا إلا أن نحاول قدر الجهد والطاقة أن نتعلم من أخطائنا وتخبُّطنا فى التجربة والجهل ببعض حقائق الحياة ، ونستفيد من تجارب الآخرين ودروس حياتهم ، فكأنما نُضيف أعمارهم إلى أعمارنا وخبراتهم إلى خبراتنا ، ونستعين بعقولهم مع عقولنا على قيادة سفينة حياتنا فى مياه النهر بغير أن تصطدم بالجنادل والصخور ، فلا نكرر خطأ وقعنا فيه مرتين .. ولا ننخدع بمن سبق له خداعنا من قبل .. ونؤمن بالحكمة القديمة التى تقول : « إذا خدعنى أحد فليسامحه الله .. أما إذا خدعنى مرة أخرى فليسامحنى أنا الله !» .

ونستفيد كذلك من تجارب العمر وتجارب الآخرين فى اختيار الطريق الصحيح لنا فى الحياة ، وفى التفرقة بين ما نستطيع إدراكه وينبغى لنا السعى إليه بكل طاقاتنا ، وبين ما لا نستطيع بلوغه مهما حاولنا ذلك ، فلا نهدر الجهد والطاقة فى نطح صخوره العاتية ، وأن نعرف كيف نميز بين أهداف الحياة الجديرة حقًّا بأن نشقى لبلوغها ،

والأهداف الأخرى التى لا تستحق فى نظر العقلاء الشقاء من أجلها وإن أغرت غيرنا بها .

***

منذ فترة زارنى بمكتبى رجل طلب لقائى ليبثنى همومه ، فروى لى أنه تزوج من زميلته التى أحبها خلال مرحلة الدراسة فى الجامعة عقب تخرجهما بعامين ، وأقاما فى مسكن مناسب وأنجبا ثلاثة أطفال صغار ، ثم تطلع إلى تأمين مستقبله ومستقبل أسرته ، فهاجر إلى أرض بعيدة تاركًا وراءه أسرته فى القاهرة ، وعمل بضع سنوات متصلة بغير إجازات يرجع خلالها لأسرته ، حتى كَوَّن بعض المدخرات الطيبة ، وطالبته زوجته بالاكتفاء بما أتيح له من أسباب والعودة للاستقرار فى بلده أو اصطحابها وأطفالها إليه ، لأنها قد ناءت بوحدتها بعيدًا عنه ومسئوليتها وحدها عن الأسرة ، فلم يستجب لرغبتها .. واندفع فى سباقه المحموم لجمع الثروة واعدًا إياها بالعودة بعد عامين أو ثلاثة ، وطالت هجرته حتى كبر الأبناء فى غيابه ، وأصبحوا حين يرجع إليهم لمدة شهر واحد كل عامين لا يكادون يعرفونه ، فعاودتْ زوجته الإلحاح عليه بالبقاء مع أسرته بعد أن تحقق له أكثر مما كان يحلم به لنفسه ، لكن العجلة كانت ـ كما قال لى ـ قد دارت ولم يعد يستطيع

إيقافها ، فماطل زوجته فى العودة ، وراح يعدها كل عام بجمع الشمل والعودة لعمله السابق فى مصر إلى أن مضت ١٧ عامًا على هجرته .. وأفاق ذات يوم على زوجته تطلب منه الطلاق بإصرار وتتمسك به ، حتى ولو أنهى كل أعماله فى الخارج ورجع للاستقرار مع أسرته ، وفوجىء بأبنائه وقد صاروا شبابًا يؤيدون أمهم فى مطلبها .. لأنهم لم يشعروا بوجوده الحقيقى فى حياتهم .. وفشلتْ كل محاولاته لإقناعها بالعدول عن مطلبها ، واضطر فى النهاية للاستجابة لرغبتها مرغمًا .. وهو يمنى نفسه بأن تراجع نفسها بعد حين ، وعاد إلى مهجره مؤملاً أن ترجع المياه إلى مجاريها بينهما بعد بضعة شهور .. فمضى عامان على الانفصال دون أن تعدل زوجته السابقة عن موقفها منه ، ودون أن ينجح هو فى بعث الدفء فى العلاقة بينه وبين أبنائه .

وبعد أن أنهى رواية قصته سألنى : ماذا أفدتُ من ثرائى وأعمالى وقد تحطمتْ أسرتى وفقدتُ زوجتى التى أحببتُها خلال مرحلة الدراسة ، وأبنائى الذين تصورتُ أننى أجمع هذه الثروة لإسعادهم ؟!

ولستُ أذكر بماذا أجبته وقتها .. لكنى أذكر جيدًا أننى وعدتُه بالاتصال بزوجته على غير سابق معرفة ومحاولة التوسط بينهما لإعادة شمل أسرتها من جديد .. وفعلتُ ما وعدتُ به ، ودار بيننا حوار

طويل، مازلتُ أذكر منه حتى الآن هذه العبارة المؤلمة : « إنه لم يتعلم شيئًا من أخطائه .. فلقد أضاع الحب والأسرة والأبناء من أجل هدف لم نكن نحتاج إليه ، وطالما رجوتُه أن « يكتفى » بما حققه منه ويرجع لإنقاذ أسرته من الغرق فلم ينتصح .. ولو رجعتُ إليه الآن فلن يطول العهد حتى يهجرنا مرة أخرى بعد حين ويكرر الخطأ نفسه » !

ولم تنجح محاولتي معها للأسف ، لكنى احترمتُ فهمها الصحيح لما يستحق أن يسعى إليه الإنسان من الأهداف .. وما لا يستحق .

فلا شىء يعوض السعادة والأمان .. وسكون القلب إلى جوار من يحب ومن يهمه أمرهم من الأبناء .

ولقد أضفتُ إلى خبرتى بالحياة هذا الدرس الثمين الذى تلامستُ معه عن قرب فى هذه القصة الواقعية وغيرها من القصص العديدة التى سمعتُها وقرأتها فى رسائل المهمومين إلى « بريد الجمعة » .

وتعلمتُ من تجارب الكثيرين التى قرأتها على مدى العمر فى مذكراتهم الشخصية وقصص حياتهم ، فتعلمتُ من قراءتى لمذكرات الملك الحسن ملك المغرب التى صدرت بعنوان « ذاكرة ملك » هذا الدرس الحكيم منذ فترة قصيرة ، وهو أنه : ليس من الحكمة أن نضيع الوقت فى محاولة إثبات حسن نيتنا تجاه من لا يضمر لنا إلا سوء النية ، لأنه لن يقتنع بذلك مهما فعلنا ، ولأننا لن نستفيد من ذلك شيئًا فى

تغيير نيته تجاهنا ، وإنما الأجدى لنا إذا اضطررنا للتعامل معه أن نتجاوز هذه النقطة .. إلى نقطة أخرى عملية هى : ماذا تريد منا ؟ وماذا ستقدم لنا مقابل ذلك ؟

كما تعلمتُ أيضًا هذا الدرس الآخر الثمين من قراءتى لإحدى خطب الزعيم السوفيتى الأسبق « نيكيتا خروشوف » وهو أنه : حتى الجنة لا ينبغى أن يساق الناس إليها بالعصا .. وإنما بالإقناع .. والحب .. والترغيب !

ذلك أن قهر إرادة الإنسان ـ ولو بهدف تحقيق الخير والعدل له ـ لن يحقق له السعادة .. وقد ينفره منها إذا أرغمناه عليها !

وتعلمتُ ـ أو حاولتُ أن أتعلم ـ ألا أكون ممن وصفهم المثل الإنجليزى القديم بأنهم مثل بحارة السفن القديمة لا يذكرون الله إلا ساعة الغرق ! وتعلمتُ ـ أو حاولتُ أن أتعلم ـ من أبى الفلاسفة سقراط أن ما لا أحتاج إليه لا يساوى عندى شَرْوَىٰ نَقِيرٍ ولو تهافت الآخرون على نيله والحصول عليه ، وبدا فى أنظارهم شيئًا ثمينًا غاليًا !

وتذكرتُ ـ ومازلت أتذكر كل يوم كلمته ـ حين دخل متجرًا حافلاً بالأشياء التى لا يستطيع ـ لفقره ـ شراءها أو الحصول عليها .. فتأملها قليلا ثم قال :

ـ ما أكثر الأشياء التى لا أحتاج إليها !

وقد اتفق معه فى هذه الكلمة الحكيمة بعد ذلك بقرون القطب الصوفى الإمام الجنيد حين قال : إن الزهد هو فراغ القلب مما خلت منه اليد !

وليس فراغ اليد وحدها منه !

وإذا كان الخليفة العباسى المأمون قد قال ذات يوم ـ وقد كان مغرمًا بالمحاورات الأدبية والفلسفة والحكمة : ألذ الأشياء هو التنزه فى عقول الآخرين ! فلقد حاولتُ دائمًا أن « أتنزه » ولو لبضع ساعة كل يوم ـ ومنذ صباى المبكر ـ فى عقول الآخرين ومؤلفاتهم وخبراتهم وتجاربهم مع الحياة ، وأنصحك بأن تفعل أنت ذلك أيضًا لتضيف أعمارهم إلى عمرك ، وخبراتهم إلى خبراتك ، وتجاربهم إلى تجاربك .

فنحن نحتاج ـ كما قلتُ لك فى البداية ـ إلى حياتين أو عمرين على الأقل لكى نفهم الحياة حق فهمها ، ونحسن التعامل معها ومع مَن حولنا من البشر . وما دمنا لا نستطيع ذلك عمليًّا فلنكتف إذن باستعارة « أعمار » الآخرين .. أقصد خبراتهم ودروس حياتهم .

فلقد كان الفيلسوف الألمانى « نيتشه » يقول : إن مَن لم ينتفع بخبرة

ثلاثة آلاف سنة ، لم يتجاوز زادُه فى الحياة خبز يوم بيوم .. أى خبرة يوم بيوم !

ولقد بدأتُ مقالى هذا عازمًا أن أحدثك عن كتاب ثمين قرأتُهُ منذ أيام ، يروى فيه عدد من أعلام المفكرين قصص حياتهم وبعض تجاربهم فى الحياة لنتشارك معًا فى هذه النزهة المفيدة فى عقولهم وخبراتهم ، فإذا بالحديث يأخذنى بعيدًا عن الغرض الذى قصدته .. وإذا بى أقع فى خطأ عدم تحديد الأهداف بدقة وعدم اتخاذ السبل المؤدية إليها من أقصر طريق .. فأتعلم من هذا الخطأ درسًا جديدًا ، كما أتعلم كل يوم من أخطائى وأخطاء الآخرين .. وأَعِدُ نفسى ألا أكرره مرة أخرى ، وبأن أحدثك عن هذا الكتاب القيم فى حين آخر بإذن الله بغير شرود عن الهدف .. ولا تخبطٍ بعيدًا عنه .. وشكرًا .

إزيّك .. يا « ادّلعدى »

أنت لم تجرّب هذا الإحساس المرير بعد .. وأرجو لك ألا تجرّبه ..

أن تشعر بأن كل شىء قد أصبح وراءك .. وليس أمامك .. وأن كل الأشياء الجميلة ، واللحظات السعيدة ، والأماكن التى شهدت أجمل الذكريات .. كلها قد أصبحت ماضيًا بعيدًا ، ولا سبيل إلى استرجاعه إلا فى الخيال .. وحتى هذا الخيال نفسه قد يعز عليك فى بعض الأحيان أن تستمتع به إلا استمتاعًا صامتًا تسترجع به الأوقات السعيدة وتتحاور مع شخوصها وذكرياتها بغير كلام ..

لأن مَنْ حولك لا يدرون بها ، ولم يعاصروها معك ، ولا يعرفون شخوصها . . فإذا تحدثْتَ إليهم عنها لم تستشعر فيهم حرارة التجاوب معها . . ولم تجد لما تتحدث عنه الصدى الذى تتوقعه منهم ، فتنطوى على ذكرياتك وتعايشها وحدك ، وتهرب إليها كلما ضاقتْ نفسك بغربتك النفسية والمكانية . . وبوحدتك وببعد الأحباء والأصدقاء . . فتصبح بذلك كمن قال عنه الأديب المغربى المعاصر محمد شكرى فى روايته الشهيرة «الشطار » : « لم يعد يستمد بهجة الحياة إلا من الماضى!»، فإذا التقيتَ بالصدفة بشخص يرتبط بهذا الماضى السعيد بشكل أو بآخر تشبثتَ به كما يتشبث الغريق بطوق النجاة ، وحاولتَ أن تَسْتَرْوِحَ معه عطر تلك الأيام الخالية . . والذكريات السعيدة . . والأماكن الجميلة التى ارتبطتْ عندك دائمًا بأجمل فترات العمر !

وأحسب أن ذلك المحامى الفرنسى العجوز الذى التقيتُ به فى باريس منذ فترة قصيرة قد أحس بكل هذه المشاعر والأشجان حين التقى بى ووجد عندى بعض الصدى لذكرياته الجميلة عن القاهرة ، وشوارعها وملاهيها ومغانيها القديمة !

فلقد كنتُ على موعد مع بعض الأصدقاء فى مطعم مصرى هناك بدعوة من سيدة مصرية تقيم بباريس منذ ٢٥ عامًا وتملك فيها محلين تجاريين ، وجاءت السيدة المصرية مصحوبة برجل فرنسى فى الثامنة والسبعين من عمره ، قَدّمَتْهُ إلينا كمحاميها الذى يتولى شئونها القانونية هناك ، وحيّانا الرجل بالفرنسية بحرارة بدت لى غير مألوفة بالنسبة



لطبائع الفرنسيين مع الأغراب الذين يلتقون بهم لأول مرة ، وجمعتنا المائدة ، ففوجئتُ بالرجل يقول لى بالعربية باسماً : « إزيك يا ادلعدى »! . . وضحكتُ للتعبير الشعبى المصرى الذى كاد ينقرض الآن على ألسنة النساء فى الأحياء الشعبية بالقاهرة ، وقدرتُ أن أحد المصريين المقيمين بباريس ربما يكون قد حَفّظَهُ هذا التعبير الدارج على سبيل المزاح . . لكنَّ تقديرى خاب حين وجدتُ الرجل ينطلق فى الحديث بعد ذلك بالعامية المصرية القديمة التى اختفت بعض مفرداتها الآن من الألسنة ، ويروى لنا عن حياته وذكرياته السعيدة فى مصر والقاهرة وشوارعها ومقاهيها وملاهيها القديمة ، واكتشفتُ أن الرجل قد تعمد أن يحيينى بهذه العبارة الدارجة ليلفت نظرى إلى أنه « ابن بلد » مصرى ، يفهم لغة أولاد البلد ويتكلم بها لأنه ولد بمصر وتعلم بها ، حتى أصبح محامياً لدى المحاكم المختلطة القديمة التى كانت تختص بالنظر فى القضايا والنزاعات بين الأجانب بعضهم وبعض ، وبينهم وبين المصريين قبل إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر وتوحيد القضاء . . كما عرفتُ أيضاً أنه قد عاش بمصر حتى سن السابعة والثلاثين ، ثم أُخْرِجَ منها حين وقع العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ ، وقامت السلطات المصرية بترحيل رعايا الدول المعتدية ، وكان هو يحتفظ بالجنسية الفرنسية تبعاً لأبيه ولم يتنبه لضرورة الحصول على الجنسية المصرية إلا بعد فوات الأوان ، فوجد نفسه بين يوم وليلة على ظهر باخرة متجهة إلى مارسيليا ، ووجد نفسه أيضاً مطالباً بأن يبدأ حياته فى فرنسا من الصفر ، بعد أن كان فى مصر من علية القوم وأبناء الذوات ، فكافح كفاحاً مريراً فى مجتمع قاس

لكى يجد لنفسه مكانًا فيه، وكلما ضاقت نفسه بوحدته ومعاناته اتجه بذهنه إلى مصر التى كان يعيش فيها حياة مرفهة سعيدة ، فيقيم فى فيلا واسعة بمصر الجديدة ويظفر باحترام المجتمع ، وحنان دادة فضيلة التى ربته وأرضعته ويعتبرها أمه الثانية ، وعطف عم صالح جناينى الفيلا الذى كان يحمله على كتفه ويتجول به فى شوارع مصر الجديدة ويروى له الحكايات الجميلة حتى ينام بين يديه فى الحديقة ، ويستمتع بأوقاته وحياته فى مغانى القاهرة القديمة . . وأماكنها الجميلة كأوبرج الأهرام وكازينو الحلمية بالاس وكازينو سان سوسى ، وروف فندق كارلتون ومقهى الفيشاوى القديم . . ومطعم خريستو بالهرم .

وتدفق الرجل فى حديث الذكريات الجميلة عن مصر والقاهرة . . وكلما وجد لَدَىَّ علماً بالأماكن التى يتحدث عنها لمعتْ عيناه فى اهتمام شديد وسألنى عنها : أمازالت موجودة كما هى ؟ ويسعد حين أجيبه بالإيجاب، ويأسف حين أقول له إن بعضها قد زال من الوجود وحلت مكانه عمارات حديثة أو محلات جديدة .

واقتحم الرجل قلوبنا بحديثه الحار عن مصر وحبه الصادق لها ، وأدهشنى أنه لم يرجع إليها بعد ذلك قط خلال الواحد والأربعين سنة الماضية . . ووجدتُ تفسيراً لذلك حين قال لى إن معظم أهله قد تفرقوا فوق الكرة الأرضية ، وأنه لم يَعُد له مَن يرجع إليه فى مصر بعد وفاة أبويه . . كما أن معركة الحياة فى فرنسا قد شغلتْهُ بلقمة العيش والكفاح المرير عن كل شىء حتى تسرب العمر من بين يديه ، ولم تبقَ له إلا الذكريات التى أعدناها نحن إلى ذاكرته بلقائه بنا !

وكأنها قد عثر الرجل على ضالته فينا بعد طول الغياب . . فلم يتوقف عن الحديث لحظة ، ولم يَدَعْ شيئًا فى مصر لم يتحدث عنه ، فحتى النكات المصرية القديمة رواها لنا وأضحكنا عليها بعاميته المصرية التى بدت غريبة بعض الشيء على آذاننا لانقراض بعض مفرداتها الآن ، وحتى عبارات الغزل التى كان أولاد البلد يحيُّون بها جمال بنت البلد العابرة بالطريق تتهادى فى ملاءتها اللف . . مازال يذكرها ويرددها ويضحك لها بسعادة ويسألنى عنها بحنين : أمازالت الملاءة اللف موجودة فى القاهرة ؟ ويأسف حين أجيبه بأنها قد انقرضت منها أو كادت .

وانتهت السهرة الجميلة وليس فى ذاكرتنا سوى هذا المحامى الفرنسى العجوز الذى يُجَسِّدُ لنا صورة « الأفندى المصرى » فى الأربعينات والخمسينات بحكاياته ولهجته وعباراته . .

وبعد يومين اتصلَتْ بى السيدة المصرية لتبلغنى بأن المسيو « ليون » يدعونى وأصدقائى إلى العشاء فى بيته ويلح فى ذلك إلحاحًا شديدًا ، وأنه سوف يتصل بى لهذا الهدف ، فلم تمض لحظات حتى اتصل بى مؤكدًا الدعوة .

وفى الموعد المحدد ذهبنا إلى مسكنه فى أحد أطراف باريس ، فاستقبلنا وهو يتألق بدماء الحيوية والنشاط والأناقة الفرنسية . . ووجدناه قد أعد لنا بنفسه مائدة « حافلة » حرص على أن يخصنى منها بطبق من الطعام النباتى الخالى من اللحوم أو الدواجن أو الأسماك ، احترامًا « لنباتيتى » الوليدة منذ حوالى العام ! وراح يتنقل بيننا فى نشاط

يداعب هذا . . ويشاكس ذاك ، ثم اتجه إلى الكاسيت ووضع فيه شريطًا ، فإذا بأنغام أغنية مصرية قديمة كانت شائعة فى الملاهى الليلية منذ حوالى ٥٠ عامًا تنساب فى جو المكان وتلقى عليه ظلالاً شفيفة من شجن الذكرى . . إنها أغنية « لامونى الناس على حبى . . لامونى الناس . . وكان الذنب مش ذنبى . . ومال الناس ؟ » ، فمن أين حصل على هذه الأغنية القديمة ؟ وكيف احتفظ بها كل هذه السنين ؟ ومن أين حصل أيضًا على هذه الأغانى الجميلة لأم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ؟

أما حين جلسنا إلى المائدة فلقد انطلق على سجيته وفجر الضحكات الصاخبة من أعماقنا وهو يروى لنا ذكرياته الطريفة عن سن الشباب فى مصر وأصدقاء الزمن القديم وحكاياتهم وطرائفهم .

وانقضى الوقت سريعًا فلم نكد نشعر بمروره ، واقتربت الساعة من الواحدة صباحًا ، وحان وقت الرحيل ، فشكرتُ الداعى بكلمة قصيرة ورجوتُ له الصحة والسعادة إلى أن نلتقى مرة أخرى بباريس فى الزيارة القادمة بإذن الله . . فإذا بملامح وجه الرجل الضاحكة تتجمد للحظات ثم تتحول تدريجيًّا إلى ملامح جادة . . ثم حزينة . . وإذا به يقول لنا إننا لا ندرى كم أسعدناه بهذا الوقت القصير الذى أمضيناه معه . . وأعدناه به إلى الحياة . . وأشعرناه بأنه ليس وحيدًا وغريبًا فى مجتمع «غريب » . . لكن لأن لكل شىء نهاية دائمًا . . فها نحن سوف نعود

لبلادنا وأهلنا وأصدقائنا . . ويبقى هو وحيدًا بلا أهل ولا أصدقاء ولا ذكريات !

ثم طفرت دمعتان حائرتان من عينيه . . فأضفتا على وجهه طابعًا من الحزن النبيل ، فانحفرتْ صورته فى ذاكرتى ومستْ قلبى وقلوب الحاضرين معى ، وحل الصمت الثقيل على المكان للحظات .

لقد أضحكنا الرجل طوال السهرة حتى طفر الدمع من عيوننا فى بعض اللحظات . . وها هو يبكينا فى ختامها أيضًا حتى يترقرق الدمع فى عيون الحاضرين !

وودعناه وداعًا حارًا لم يفلح خلاله أحدنا فى أن يعيد الرجل إلى مرحه السابق ، وغادرنا الشقة وصدورنا تجيش بالإشفاق عليه ، فما أن انفردت بالصديقين المصريين المقيمين بباريس واللذين رافقانى إلى هذه السهرة ، حتى طلبتُ منهما فيما يشبه الرجاء ألا يدعا هذا الرجل لوحدته طويلاً بعد عودتى لمصر ، وبأن يُشْعِراه بمودتهما له واهتمامهما بأمره ، فيدعواه ولو مرة كل شهر إلى اللقاء بهما وبأصدقائهما من المصريين المقيمين هناك ، ووعدنى الصديقان خيرًا . . وأرجو أن يفيا بالوعد .

واسترجعتُ خلال رحلة العودة فى ليل باريس وجه الرجل فى ختام السهرة . . وحزنه النبيل . . والدمعتين المتجمدتين فى عينيه . . فتذكرتُ ما رواه العالم المؤرخ الأديب الدكتور « أحمد أمين » فى كتابه الممتع « حياتى » حين سافر إلى إسطنبول مع زميله المؤرخ « عبد الحميد

العبادى » فى مهمة علمية لدراسة بعض المخطوطات العربية القديمة فى مكتبات المدينة التركية ، فحرص أحمد أمين على البحث عن أستاذه القديم بمدرسة القضاء الشرعى « على بك فوزى » ، الذى هاجر من مصر قبل عشرين عامًا واستقر بإسطنبول وحيدًا بلا أهل ولا زوجة ولا أبناء ، وكيف سعد الرجل سعادة طاغية بلقاء تلميذه القديم وزميله ، واستنجزهما الوعد بأن يلتقيا به كل يوم خلال وجودهما فى إسطنبول ، وكيف أنِس الرجل لهما ووجد فيهما مهربًا له من وحشته ووحدته . ثم حانت لحظة الرحيل ، فزاراه للاستئذان فى السفر عائديْن لبلدهما ، فإذا بالدمع يطفر من عين الرجل . . ويقول لهما : أنتما تستأذنانني فى فقد حياتى بعد أن كنتُ قد استرجعتها معكما !

وأحسبُ أن هذا الإحساس الأليم نفسه هو ما كان يساور المحامى الفرنسى العجوز ونحن نستأذنه فى الانصراف بعد سهرة سعيدة عاش خلالها فى أجواء ماضٍ جميل ذهب وانقضى . . وهيهات له أن يعود إلا فى شجن الذكرى .

لقد أصبح الرجل كبطل رواية محمد شكرى وككثيرين غيره ممن أوغل بهم قطار العمر وخلتْ حياتهم الحاضرة من أسباب البهجة والإيناس ، فلم يعودوا يستمدون بهجة الحياة إلا من الذكرى وأصداء الماضى البعيد . .

ألم أقل لك من البداية إنه إحساس مرير . . أرجو ألا تجربه ذات يوم؟

الرقص بالعصا

علمنى صديقى المحامى الفرنسى الذى يقترب من سن الثمانين درسًا جديدًا من دروس الحياة !

فلقد رجعتُ إلى مصر وكتبت عنه المقال السابق بمجلة الشباب بعنوان « إزيك يا ادلعدى » ، إشارة إلى العبارة التى استقبلنى بها حين تعرفتُ به لكى يقنعنى بأنه مازال يتذكر العبارات العامية المصرية ولغة أولاد البلد .

ثم جرفتنى مشاغل الحياة ، فلم أدر ذات يوم إلا وهذا المحامى الفرنسى يتصل ببيتى فى غيابى ويبادر ابنتى ـ التى ردت عليه ـ بحديث ضاحك بالعامية المصرية يطلبُ منها فى نهايته أن تشكرنى على ما كتبتُه عنه ، لأنه قد قرأ « المكال » فى باريس وسعد به كثيرًا ، وعلمتُ من الأصدقاء المشتركين أنه قام بتصويره ٣٠ صورة وَزّعَها على أصدقائه ومعارفه ، مؤكدًا لهم أنه المقصود بهذا المقال .

ثم مضتْ شهور ورجعتِ السيدة المصرية التى عرَّفتنى به فى زيارة لبلدها ، فإذا بها تحمل إلىَّ منه خطابًا قصيرًا باللغة العربية يبثنى فيه أشواقه ويسأل متى يتجدد اللقاء ، ومع الخطاب هدية . . تأملتها طويلاً وضحكتُ لها كثيرًا ، فلقد أرسل إلىَّ قميصًا من اللون الأخضر الزاهى . . و « كرافت » خضراء اللون زاهية . . كأنما يقول لى بهديته : إنه مازال شابًّا بِغَضّ النظر عن حكم السنين ، ويجب أن يكون الأصدقاء شبابًا مثله !

ولم أتعجب لذلك كثيرًا . . فهو يرتدى مثل هذه الألوان الزاهية . . ويسير على قدميه بنشاط وحيوية . . ويفتحِ أزرار قميصه عن صدره حتى الزر الثالث . . ويتعامل مع الحياة بروح الشباب ، وليس بمنطق الكهول أمثالنا !

واحتفظتُ بهديته رمزًا للشباب الضائع ولم أفكر بالطبع فى استعمالها !

ثم سافرتُ إلى باريس فى الشهر الماضى ، فحملتُ إليه هدية رمزية

صغيرة من مصر كان من بينها « سلايدز » لمشاهد متنوعة من مصر التسعينيات ليقارن بينها وبين مصر الأربعينيات التى كان يعرفها ، وصورة من العدد الأول من جريدة الأهرام الصادر عام ١٨٧٦ ، سَعِدَ بها كثيرًا واعتبرها « كنزًا » ثمينًا . .

ثم دعانى للعشاء فى مسكنه مع شلة الأصدقاء . . وكلف سيدة فرنسية نباتية بإعداد مائدة من الطعام النباتى البحت إكرامًا لى ، واجتمعنا فى مسكنه . . فقدم لى صديقين من أصدقائه القدامى ، كانا يعيشان مثله فى مصر قبل أن يهاجرا منها فى الخمسينيات ، يبلغ أحدهما الثانية والثمانين من عمره . . وتبارى الثلاثة فى الحديث معنا عن مصر وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب . . وتفوق الصديق الذى تخطى الثمانين من عمره فى الاستشهاد خلال حديثه بالأمثال العامية المصرية التى يحفظ الكثير منها . . حتى « حذرنى » صديقى المحامى الفرنسى ضاحكًا منه . . قائلاً : إن هذا الرجل إذا حييتَهُ بتحية فإنه يُجيبك على تحيتك بمَثل عامى من محفوظاته القديمة ، أو بيت من الشعر العربى القديم الذى مازال يحفظه ! وروى الصديق الثالث أنه كان يتفوق على نظرائه من تلامذة الفصل فى المرحلة الثانوية فى حفظ الشعر العربى ، حتى تعجب لذلك مدرس اللغة العربية ولام زملاءه قائلا : أليس من العيب عليكم أن يحفظ هذا « الأجنبى » ما تعجزون أنتم عن حفظه من الشعر العربى؟ فيجيبه التلاميذ ضاحكين : أصله خواجة لئيم يا بيه !

وانتهت السهرة بين حديث الذكريات الممتع . . والمقارنة بين صوت

عبد الوهاب فى شبابه ، وصوته فى مرحلة الكهولة ، وبين أغانى أم كلثوم القديمة فى بداية حياتها وأغانيها فى المرحلة الأخيرة من عمرها .

وأبلغنى المحامى الفرنسى الصديق بأنه قد حزم أمره أخيرًا وقرر أن يرجع لزيارة مصر فى سبتمبر القادم ليرى الأرض التى عاش فيها طفولته وصباه وشبابه لأول مرة بعد ٤٢ عامًا من الغياب عنها ! وقال لى : إن أول عنوان سوف يبحث عنه فى القاهرة هو : ٥٥ شارع العباسية ، حيث كان يقع بيت الأسرة بفنائه الترابى الواسع ، وحيث كان يلعب الكرة مع قرنائه من الصغار ، وإن كان يعرف بالطبع أن البيت قد تحول إلى مدرسة ابتدائية أو ما يشبه ذلك . . وأما بقية العناوين . . فهى عناوين مَنْ بقى على قيد الحياة من أقاربه ورفاق شبابه .

وتكرر مشهد الوداع الذى تتندى فيه عيناه بالدمع النبيل عند الفراق ، فكأنما يشعر فيه بأنه يفارق رموز ذكرياته الجميلة فى مصر وصباه وشبابه فيها . . وغادرتُ باريس وأنا أستعيد فى مخيلتى الحديث الذى اعتبرتُهُ درسًا جديدًا من دروس الحياة التى قد ينقضى العمر كله بغير أن يستوعب المرء كل خبرتها . .

فلقد روى لى هذا المحامى الفرنسى - الذى يبلغ من العمر الآن ٧٩ عامًا - أنه يقضى نهاره فى مكتبه يمارس أعماله القانونية . . ويتعامل مع عملائه ومساعديه بجدية وحزم ؛ ثم يرجع إلى مسكنه فى الخامسة والنصف مساءً ، فيضع حقيبة أوراقه فى مكانها التقليدى ، ويقضى ساعتين كاملتين فى سماع الموسيقى والأغانى المصرية القديمة قبل أن

يتناول عشاءه فى السابعة والنصف ، ثم يجلس أمام التليفزيون ليشاهد نشرة أخبار الثامنة التى يحرص معظم الفرنسيين على متابعتها ، ويتابع بعدها بعض البرامج الأخرى لمدة ساعتين أخريين ، ويدخل غرفة نومه فى العاشرة ، ويستسلم للنوم على أنغام الموسيقى الهادئة . . ويصحو فى السادسة صباحًا ليبدأ يومًا جديدًا من حياته مفعمًا بالنشاط والحيوية والإقبال على الحياة !

وأما « الدرس » فيكمن فى الساعتين اللتين يقضيهما فى سماع الموسيقى والأغانى المصرية القديمة . . إذ إنه يضع فى المسجل شريطًا لا أدرى كيف استطاع الحصول عليه فى باريس ، يتضمن عزفًا بالمزمار البلدى لبعض القطع الموسيقية الشعبية التى تصاحب عادة رقص الخيل فى مصر . . ويستمع إليه أكثر من مرة ، وقد يستخفه الطرب خلال ذلك فيرقص على أنغامه بالعصا وهو وحيد فى مسكنه ، وليس مُهِمًّا أن يشاهده الجيران من النافذة المفتوحة وهو يرقص رافعًا العصا على طريقة أولاد البلد . . ولا أن يظنوا به الجنون . . وإنما المهم هو أن يفرغ شحنة التوتر التى تجمعتْ داخله خلال يوم العمل الطويل ، وأن يشعر بالابتهاج والاستمتاع بالحياة خلال هاتين الساعتين قبل أن يجلس إلى مائدة العشاء

وبعد وجبة المزمار البلدى والرقص بالعصا يأتى دور الطرب الأصيل، فيسمع أغنية أم كلثوم القديمة « أنا فى انتظارك » . . أو كما يسميها هو « أنا فى الانتظار » ، ويطرب كثيرًا وقد يصفق وحيدًا بين

المقاطع . . أو يصيح قائلاً : « الله يا ست » ، أو « عَظَمَة على عظمة على عظمة » . . كما كان يردد جمهور « كوكب الشرق » عند استحسانهم لغنائها !

ولقد روى لى صديقى المحامى الفرنسى ذلك ، فَوشَتْ ملامحى ـ فيما يبدو ـ بما أعتبره عدم تصديق لما يرويه ، فغادر غرفة المعيشة ليضع شريط المزمار البلدى فى المسجل . . ثم غاب فى غرفة نومه للحظات ، ورجع حاملاً عصا كتلك التى يستعملها راقصو الفنون الشعبية ، وتَرَقبَ بداية معزوفةٍ جديدةٍ من الشريط ثم راح يتمايل على أنغامها باستمتاع شديد شاهرًا العصا ، حتى أتم الرقصة كاملة وسط ضحكاتنا . . وتصفيقنا . . وإعجابنا بروحه الشابة وقلبه الطروب !

ثم قال لنا فى النهاية: إنه يستعين بهاتين الساعتين من الطرب والموسيقى على وحدته ، وجفاف العمل ، وتوترات الحياة المختلفة !

وأيدتُهُ بحماس فى فلسفته الخاصة هذه فى الحياة ، وتذكرتُ كلمة الشاعر الألمانى « نيتشه » التى تقول : إن الإنسان فى وحدته أقرب ما يكون إلى الجنون !

وتمنيتُ لو استطاع كل إنسان أن يمارس فى حياته الخاصة بعض هذا الجنون العاقل الذى يغسل الأحزان ، ويجدد الحيوية ، ويغرس البهجة فى الروح المتجهمة ولا يضر أحدًا ! . . فهو « جنون مفيد » يعين الإنسان على همومه . . ويساعده على الابتهاج بالحياة بغير أن يقترف إثمًا أو يرتكب معصية .

ولقد كان لمعظم المشاهير والعباقرة لمحات من هذا « الجنون المفيد » فى حياتهم الخاصة الذى نسميه نحن « بالهوايات » المختلفة ! فكان أينشتاين يعزف على الكمان عزفًا رديئًا يستمتع به للغاية رغم نشازه، ويعزف بشكل أفضل قليلاً على البيانو ، وكان رئيس الوزراء البريطانى العتيد « ونستون تشرشل » يرتدى فى عطلة نهاية الأسبوع عفريتة العمال ويبنى بيديه سورًا من الطوب حول بيته الكبير فى الريف الإنجليزى . ويرسم بالألوان المائية أيضًا .

وكان الجنرال « فرانكو » ـ ديكتاتور أسبانيا ـ يتشاغل عن همومه ومسئولياته بالرسم دون أن تكون لديه أية موهبة فنية فيه . .

كما كان الفيلسوف الألمانى شوبنهاور يقضى كل يوم نصف ساعة فى العزف على آلة الفلوت ، وبضع دقائق يوميًا فى التشاحن مع صاحبة المسكن الذى يقيم فيه ، ولا يعتبر يومه قد اكتمل إلا إذا فعل ذلك ! وغير هؤلاء كثيرون وكثيرون . . والمغزى فى النهاية هو أن كل إنسان فى الحياة يحتاج إلى « عصا » يستعين بها على وحدته وهمومه ، ويتشاغل بها عن مسئولياته وأحزانه وإحباطاته . . ويفرغ فيها شحنة التوتر والقلق التى تتجمع فى أعماقه خلال معركة الحياة .

فأين « عصاك » يا صديقى ؟

لن أركب السفينة

تستطيع أن تغنى للدنيا وتبتهج بها وترى كل الأشياء من حولك جميلة وواعدة ..

وتستطيع أيضًا أن تكره الدنيا وتكتئب لها ولا ترى فيها إلا كل ما هو ردىء ومحزن وباعث على التشاؤم !

والدنيا هى الدنيا فى الحالتين ، وأنت هو أنت فى حال الابتهاج بها ، وحال الاكتئاب منها . لكن جهاز الاستقبال الداخلى عندك هو الذى تغيرتْ « شفرته » فتغيّرَ تأثرُكَ بها وتجاوبُكَ معها !

وهذه حقيقة نفسية عرفها الحكماء منذ قديم الزمان ، وفسرها علماء النفس فى العصر الحديث وبرروها ، ففى تاريخ الفلسفة الإغريقية حكاية معروفة عن فيلسوفين هما : هيروقليطس وديموقريطس ، كانا ينظران إلى سخافات الناس فيختلف تأثر كل منهما بها ، فيرى فيها الأول سببًا للضحك من عقول البعض وسماجتهم ، ويرى فيها الثانى مبررًا لأن يحزن لحال البشر ويكتئب له .

فكان هيروقليطس ينظر إلى الحياة بعين التفاؤل ، ويرى أخطاء الناس فى حقه وحق الآخرين تافهة ولا تستحق إلا الضحك من تفاهة أصحابها ، وكان ديموقريطس ينظر إليها بعين التشاؤم ، فيراها مأساوية وتستحق البكاء من أجلها !

والحق أن معظم ما يواجهه الإنسان فى حياته اليومية من مفارقات ومواقف ، يستطيع إذا شاء أن يحزن له ويكتئب . . ويستطيع كذلك أن يضحك منه ويتعالَى فوقه ، وهو يكرر بذلك مثال الدلوين الشهيرين فى القصة القديمة التى تحكى أن دلويْن كانا مربوطيْن بحبل ومعلقيْن على بَكَرَةٍ فوق بئر ، فينزل أحدهما فارغًا وهو يتراقص كأنه يضحك متفائلا ، ويصعد الآخر ممتلئًا ويفيض منه الماء كأنه يبكى ، والتقى الدلوان فى منتصف الطريق ، فسأل الدلو الراقص زميله الباكى :

– لماذا تبكى ؟

فأجابه : وكيف لا أبكى وأنا أحمل الماء الثقيل بصعوبة وأصعد إلى أعلى ، فيعيدنى صاحبى إلى ظلام البئر من جديد !!

ثم سأل الدلو الباكى زميله : وأنت لماذا تتراقص ؟

فأجابه : وكيف لا أتراقص وأنا أنزل إلى قاع البئر فأمتلىء بالماء العذب الصافى ، وأصعد لأعلى فأستمتع بالضوء والشمس من جديد ! !

وهكذا نحن جميعًا . . منا مَن يكرر مثال الدلو الراقص ، ومنا من يكرر مثال الدلو الباكى المتشائم . .

وفى أمريكا تنتشر الآن كتب مدرسة جديدة فى التأليف ، اسمها مدرسة « الدافعية » ، وهى كتب يحاول مؤلفوها أن يحركوا دوافع الحياة والتقدم فى داخلك ، وأن يعلموك كيف تحتفظ بشمسك الداخلية ساطعة طوال العمر ، وكيف تستثمر حياتك وقدراتك وأوقاتك أفضل استثمار . . وكيف تستمتع بجمال الأشياء والعلاقات الإنسانية . . وكيف تُحَسِّنُ من طريقة تفاعلك مع الحياة وتزيد من جرعة الأمل والتفاؤل فى وجدانك ، وهى كتب تَلْقَىٰ الآن رواجًا كبيرًا بين القراء من الشباب والكهول على حد سواء . . ولمؤلفيها أتباع وأنصار يقرأون كتبهم ويشهدون محاضراتهم ويطبقون إرشاداتهم لتحسين مستوى تفاعلهم مع الحياة ، ويستمعون إلى شرائط تعليماتهم بصفة يومية وفى كل موقف يواجهونه ، وهى إرشادات تتراوح ما بين كيفية تحسين القدرات فى العمل . . إلى كيفية التنفس بعمق خلال أوقات الراحة . . وحتى كيفية تعلم الاسترخاء التام فى البيت بين فترات النشاط ، وكيفية النوم بعمق فى الليل ، وكيفية الاستمتاع بأوقات الفراغ . . وكيفية إدارة علاقاتك

الشخصية والاستمتاع بالصداقة والزمالة فى العمل ، وفى البيت ، وفى الحى الذى تقيم فيه . .

وليس من الغريب أن تجد رجلاً فى السبعين من عمره يستمع إلى شريط لأحد مؤلفى هذه الكتب لكى يتبع إرشاداته حول ما ينبغى عليه أن يفعله إذا زار مثلاً ابنه المتزوج فى بيته وبين أسرته الصغيرة ، أو إذا «هَجَرَتْهُ » صديقته وتركَتْهُ للوحدة والفراغ ! فالجميع كبارًا وصغارًا سواءٌ أمام الحاجة إلى تعلم فن الحياة السعيدة . . وأمام الحاجة لمن يرشدهم إلى كيفية اكتشاف أنفسهم ومهاراتهم الاجتماعية ، وكيفية تأجيج دوافعهم الذاتية للاستمتاع بالحياة .

وقديماً قال الأديب الفرنسى الراحل « ألبير كامى » : إنه من بين كل العلوم والفنون ، لم يجد « فَنًّا » أصعب فى تعلمه من فن الحياة .

ومن نصائح خبراء الحياة هؤلاء لك : أن تتعلق دائماً بالأمل فى الغد الأفضل ولو كان عمرك يقترب من المائة ، وأن تؤمن مع الفيلسوف الألمانى المتفائل « ليبنتز » بأن هذا « العالم » هو أفضل عالم يحتمل أن يكون موجودًا فى الكون كله ، حتى ولو ساءنا منه ما نراه فيه من بعض صور الشر والظلم ، وألا تضعفَ أمام بعض صور الشر فى الحياة فتقول مع أحد أبطال رواية « كانديد » للمفكر الفرنسى فولتير :

ـ إذا كان هذا هو حال أفضل عالم فى الكون ، فكيف يكون إذن حال « العوالم » الأخرى ؟

وإنما تُواصِلُ إيمانك فى كل الظروف والأحوال بخيرية الحياة والبشر ، وبأنه إذا كان الإنسان لا يستطيع أن ينفذ نصيحة الفيلسوف البريطانى « برتراند راسل » الساخرة له لكى يعيش حياته سعيدًا بأن يختار « أجداده » بعناية قبل المجىء للحياة ، ليضمن مجيئه إليها حاملاً صفات وراثية سليمة تهبه الصحة والقوة والمزاج النفسى المعتدل ، فإنه يستطيع على الأقل أن يختار حياته الشخصية . . وأصدقاءه وأصحابه والاهتمامات التى تقترب به من الحياة السليمة .

وفى هذا المجال فإنهم ينصحونك بأن تحسن اختيار من يرافقونك فى رحلة الحياة بشتى مجالاتها ، من البيت إلى العمل إلى الجيرة إلى الصداقات والمعارف .

ويقول لك قائلهم : عاشِر الأحباب وابتعد عن عشرة الثقلاء واليائسين من الحياة وكارهى البشر ، والحاقدين وناكرى الجميل و«اللحْمِيين » الذين ينهشون لحوم الآخرين بألسنتهم نهشًا ، ولا يفرقون فى ذلك بين عدو وحبيب ، وابتعِدْ عن ذوى النفوس المظلمة التى لا ترى فى الآخرين إلا كل نقيصة .

فعشرة هؤلاء تحولك تدريجيًّا - إن لم تحترس منها ومنهم - إلى مثال الدلو الباكى . . الكاره للحياة وللبشر ، والأفضل هو ألا تسمح لأمثالهم بالاقتراب الشخصى منك لكيلا ينالك من أذاهم بعض الشظايا التى لابد أن تصيبك حتى ولو كانوا يتظاهرون لك بالود والإخلاص . .

والأفضل دائمًا هو ألا تركب معهم « السفينة » . . على حد تعبير الشاعر الراحل الكبير « على الجارم » الذى قال عن أحد الثقلاء :

يا له من ثقيل ... دمًا وروحًا وطينة

لو كان من قوم نوح ... لما ركبتُ السفينة !

وهى نصيحة مُجَرِّبٍ أستطيع أنا أيضًا أن أنصحكَ بها عن خبرة ، فلقد علمتنى الحياة أن أفضل وسيلة للتعامل مع ذوى النفوس المظلمة هؤلاء هى الاحتفاظ دائمًا بمسافة كافية بينك وبينهم لا تسمح لهم بالاقتراب من دائرة « البهر » عندك ، أى دائرة التنفس ، إيمانًا بأن البعد عنهم غنيمة ولو كانت كل عطايا الدنيا تنتظرك معهم .

أذكر أن أديبًا صديقًا لى حدثنى منذ بضع سنوات عن رغبة كاتب ـ كان يعيش خارج مصر لسنوات طويلة ورجع إليها وقتها ـ فى أن يكتب مقالاً شهريًا لمجلة الشباب ، وفوجىء بى الصديق الأديب أعتذر له عن عدم إمكان تلبية هذه الرغبة رغم ما كان يعرفه عنى من إعجاب بأعماله الأدبية ، وسألنى مندهشًا عن السبب ، فاضطررتُ لأن أكشف له عنه ، وهو أن هذا الكاتب خلال سنوات اغترابه الطويلة كان يتلقى مساعدة مادية شبه منتظمة من روائى مصرى كان يعمل فى أوروبا ويقيم بها ، تقديرًا منه لظروف هذا الكاتب العائلية الصعبة فى الغربة ، ثم رجع الكاتب المغترب ليستقر فى بلده بعد الغيبة الطويلة ، فكان أول ما فعله أن كتب مقالاً بذيئًا بإحدى الصحف يهاجم فيه ذلك الروائى المصرى

الذى ساعده كثيرًا من قبل ، ويتهمه بالغرور والتعالى وضحالة الموهبة الأدبية .

ودهش الصديق الأديب لأن أرفض كاتبًا لمثل هذا السبب غير الشخصى ، خصوصًا وأنه لم تكن تربطنى وقتها علاقة حميمة بالروائى المقصود ، ثم قال لى : إن « فلانًا » قد سامحه على ما فعل وتفهم ظروفه النفسية المعقدة التى دفعته لذلك .

فأجبتُه على الفور : لكنى لم « أسامحه » بَعْدُ على هذا الجحود الإنسانى وهذا الغدر بصديقه ، ولستُ أعتذر عن عدم قبوله للأسباب الأخلاقية فقط . . وإنما لدىَّ أيضًا أسبابٌ « أنانية » ، فلست أريد أن ينضم إلى كُتّاب مجلة الشباب هذا الكاتب ، فأضطر للتعامل معه . . ويدخل بذلك دائرة تنفسى ، فلا أنجو مهما فعلتُ معه من سهم من سهام نفسه المظلمة ذات يوم ، ولهذا فإنى أشكرك على الاقتراح وأعتذر عن عدم استطاعتى تنفيذه !

ومن هنا تأتى أهمية ألا تعرف وألا تقترب إلا من أصحاب القيم الأخلاقية والإنسانية والدينية ، وألا تسمح لغيرهم باختراق أسوارك النفسية والشخصية . . فمعظم أسباب النظرة التشاؤمية إلى الحياة يكمن وراءها أشخاص وسلوكيات ، ومواقف غدر وخسة وجحود من هذا النوع .

وهذا النوع من البشر لا أحب أن أركب معه « السفينة » ولو كان فيها سبيل النجاة الوحيد من الغرق !

ولهذا أيضًا ينصحك خبراء الحياة بأن تعرف أنت أيضًا أهمية القيم فى حياتك ، لتكون صديقًا غاليًا على الآخرين ، وأن تختار أصدقاءك فى البداية على أساسها ، كما ينصحونك بأن تؤمن مع العقلاء وذوى القلوب الحكيمة بأن فى الحياة أشياء كثيرة ثمينة لاتُشْتَرَى بالمال ، ولا تعوّضها كل ثروات الأرض . . كالصحة والسعادة . . والصداقة المخلصة ، والعشرة الجميلة ، والاطمئنان النفسى وراحة القلب والضمير .

ويقولون لك أيضًا : إن العمل الشاق لا يقضى على الصحة أو الشباب كما يتوهم الكسالى والمتبطلون ، بل إن العكس هو الصحيح ، لأن قوة الخلق والابتكار لدى الإنسان تبدأ غالبًا بعد الأربعين ، وأنه إذا كان جسم الإنسان يبدأ فى التراجع بعد الأربعين فإن عقله لا يهرم ولا يشيخ ، وإنما يزداد توهجًا إذا حافظ على اهتمامه بالحياة من حوله ، وحرص دائمًا على أن يجعل لنفسه فى كل مرحلة من مراحل العمر هدفًا صغيرًا يسعى لتحقيقه ، ثم ينتقل من بعده إلى هدف آخر قريب ، فالشيخوخة الحقيقية هى فى الإحساس المدمر بأن العمر قد انقضى ومات الأمل . . وضاعت الأهداف والغايات والاهتمامات ، وليست فى أى شىء آخر . . ولقد عرفتُ رجلاً فاضلاً كان موظفًا حكوميًا كبيرًا قبل إحالته للمعاش منذ ٢٨ عامًا ، يقضى أوقاته فى القراءة والبحث والكتابة بالرغم من أنه لم يكن فى يوم من الأيام كاتبًا ولا باحثًا ، لكنه أراد أن يحافظ على توهج الشمس الداخلية لديه ، فخلق لنفسه هذا الاهتمام

الجديـد وراح يقرأ ويبحث ويكـتب حـتى ولو لم يقرأ أحـد مـا كتبه .

وقد فاجأنى منذ ست سنوات بدراسة من ٣٠٠ صفحة كتبها بيده وبخط جميل مرتب عن مشاكل الأسرة المصرية من خلال رسائل بريد الجمعة فى فترة زمنية محددة ، وتفضل بزيارتى مهديًا إلىّ هذه الدراسة القيمة ، فكان إعجابى بحيوية الرجل وحسن اختياره لما يشغل به فراغه لا يقل عن إعجابى بدراسته القيمة المفيدة . وقد طبع الأهرام خمسمائة نسخة من دراسته هذه ليهديها لمكتبات كليات الإعلام والدور الصحفية والمهتمين بهذه الدراسات ، وغاب عنى الرجل الفاضل عامين ثم رجع إلىّ بدراسة آخرى فى ٣٠٠ صفحة عن بريد الأهرام اليومى وتيارات الرأى العام التى يعكسها خلال فترة محددة ، ثم بدراسة ثالثة ورابعة ، حتى بلغ مجموع صفحات دراساته هذه ١٤٠٠ صفحة ، كتبها كلها بخط اليد حتى الآن، ومازال الرجل الفاضل يقرأ ويبحث ويكتب . . متعه الله بالصحة .

وهكذا تستطيع أنتَ أيضًا أن تفعل وأن تخلق لنفسك الاهتمامات الجديدة التى تناسب كل مرحلة من مراحل عمرك ، وتستطيع أيضًا أن تحتفظ بحرارة العواطف حتى اللحظة الأخيرة من مسرحية الحياة ، وأن تكون قادرًا على الإحساس بالمشاعر الرومانسية الجميلة والمشاعر الإنسانية وتذوق الجمال فى كل الأشياء .

فإن لم تفعل ذلك ، واستسلمتَ لليأس والضغط والتشاؤم ،

وفضلتَ ـ كما يفعل البعض ـ أن تعذب نفسك بكل الأشياء بلا مبرر ، فلسوف أقول لك ما قاله هذا المؤلف الأمريكى على لسان إحدى شخصياته الروائية لإنسان مهموم بأمره دائماً بلا أسباب جدية :

ـ لماذا تُعذب نفسك بلا مبرر . . والحياة لن تتأخر عن القيام بهذه المهمة أفضل منك حين توجد الأسباب الحقيقية للتعاسة والعذاب ؟!

صدفة سعيدة

المثل العربى يقول : لا يُغنى حَذَرٌ مِنْ قدر.

والحكمة العربية القديمة تقول : من مأمنه يُؤتى الحذر !

والمثل العامى المصرى يتوعد من يغالى فى الخوف من «العفريت» بأن يظهر هذا العفريت له وحده دون غيره من البشر الذين لا يتوجسون كل هذا التوجس منه !

وقد تذكرتُ كل ذلك ذات صباح وأنا فى مطار إحدى المدن الأوروبية أستعد لركوب الطائرة عائدًا إلى بلدى بعد أسبوعين قضيتهما فيها . . فلقد تحسبتُ طوال وجودى فى هذه المدينة لشىء بذاته وحرصت على تفاديه بكل السبل على مدى أسبوعين ، فشاء القدر أن يذكرنى بحكمته فى اللحظة الأخيرة !

وأصل الحكاية أن لى ثروة ثمينة من الأصدقاء الحميمين الذين يقيمون خارج مصر ، فإذا سافرتُ إلى الخارج فى إجازة أو عمل حرصتُ على الالتقاء بهم وقضاء أسعد الأوقات معهم . . بل إننى قد أحدد فى بعض الأحيان خط سير الرحلة إلى الخارج على أساس خريطة هؤلاء الأصدقاء الموزَّعين فى أرجاء الكرة الأرضية ، فإذا كنتُ مسافرًا إلى باريس ، فإنى أُمنِّى النفس قبل السفر بلقاء الأحباء المقيمين هناك ، وأتخيل أوقات الصفاء التى ستجمعنا معًا ، وأوقات السمر التى ستطول بيننا . . و«المؤامرات» التى سندبرها لهذا الصديق أو ذاك للاستئثار به معظم أوقات الرحلة دون بقية شواغله واهتماماته ، ولا أكتفى بذلك ، وإنما أفكر أيضًا فى برنامج الرحلات الداخلية والخارجية خلال الزيارة ، والذى سنحاول تنفيذه بلا هدف سوى أن نلتقى بالأصدقاء المقيمين فى العواصم والمدن القريبة نسبيًّا .

وإذا سافرتُ إلى دولة عربية كان كل همى هو أن أرى مَن أعرفه من الأصدقاء فيها أو فى العواصم القريبة منها . ونفس الشىء إذا سافرتُ إلى أمريكا أو آسيا . . ومن اللحظة التى أصل فيها باريس مثلاً يبدأ

الاتصال بينى وبين الأصدقاء المقيمين فى العواصم القريبة ، ويحتدم الجدال التقليدى بينى وبينهم على النحو التالى :

ـ تعالَ إلى فيينا ـ مثلاً ـ فى عطلة نهاية الأسبوع .

ـ لا . . تعالَ أنت إلى باريس الآن بغير انتظار للعطلة .

وقد يُغالِى بعضهم فى حسن الظن بقدرتى على الحركة ، فيقول لى أحدهم ـ كما حدث أكثر من مرة وأنا فى باريس : تعالَ إلى واشنطن ، ناسيًا أن بينى وبينه محيطًا ورحلة تستغرق ثمانى ساعات بالطائرة! وهكذا معظم أيام الرحلة . . وقد ينتهى الأمر بى بالسفر إلى لندن بالقطار ، أو إلى أمستردام بالسيارة، أو إلى فيينا بالطائرة . وقد يستسلم أصدقاء الخارج فى أحيان أخرى لرغبتى ، فيأتون إلينا فى إجازة قصيرة إلى باريس خلال وجودى بها، فأعتبر هذه الفترات السعيدة التى نقضيها معًا ساعات مسروقة من العمر تجدد الصداقة وتغسل النفس من همومها . . وتُثْرى الروح .

وكان الصديق الذى سأحدِّثكَ عنه هنا واحدًا من هؤلاء الأصدقاء المقيمين خارج مصر . . وكانت زيارتى إلى المدينة التى يقيم فيها كل سنة فرصة ذهبية لتبادل أنخاب المودة الصافية معه ، غير أنى لاحظت خلال السنوات الأخيرة أن شيئًا جوهريًا فى روحه قد تغير . . وأنه لم يعد نفس الصديق الذى أجد معه سكينة الروح كما كان الحال من قبل ، وسمعتُ من الأصدقاء المقيمين هناك شكاوى مريرة منه ومن بعض تصرفاته ،

ومن اعتماده الدائم على تسامح الآخرين معه . . ولمستُ منه شخصيًّا بعض ما أكد لى صدق هذه الشكوى ، ووجدتُ نفسى فى البداية أتعامل معه بمنهجى مع الأصدقاء الذين أحرص على ألا ينقطع حبل المودة بينى وبينهم ، فأتجاوز عن بعض هناته ، وأفسرها دائمًا بحسن النية أو قلة الإدراك ، وأتجاهل الجوانب السلبية فى شخصيته وأتعامل مع الجوانب الإيجابية منها . . مرددًا لنفسى دائمًا قول الشاعر :

إذا كنتَ فى كل الأمـور معاتبًا صديقَك ؛ لم تَلْقَ الـذى تعاتبُه

أو متذكرًا قول ابن الرومى :

همُ الناسُ والدنيا . . ولابد من قَذًى

يُلِـــمُّ بعيـــنٍ أو يُكـــدِّرُ مَشْربَـــا

ومـــن قلـــة الإنصـــاف أنـــكَ تبتـــغى

المهذَّب فى الدنيا . . ولستَ المهذَّبا !

حتى إذا امتلأتِ الكأس بما تنكره النفس على أحد الأصدقاء وتعكر صفوى تجاهه . . وجدتُ نفسى محكومًا بطبعى الذى لا حيلة لى فيه ، راغبًا عن صحبته لفترة من الوقت أعتبرها فترة نقاهة ضرورية ، وأحاول خلالها إفراغ الكأس من محتواها لترجع خالية من جديد ، ثم أستأنف لقاءاتى به وليس فى صدرى مالا أحب أن ينطوى عليه تجاهه ، فإذا عاتبنى على الانقطاع عنه تلك الفترة وجدتُ فى نفسى أخيرًا القدرة على

الإشارة إلى ما ثقل عليَّ التجاوزُ عنه من أمره ، وعاتبتُه عتاب مَن يتلهف على أن يجد لديه ما ينفى ظنونه ، وليس ما يثبت الخطأ . . ولقد يضيع من الذاكرة أكثر ما وجدته عليه من قبل ، فلا أتذكر منه إلا أقل القليل ، وأحمد الله كثيرًا على ذلك ؛ لأن الحياة السليمة تحتاج إلى ذاكرة ضعيفة بالنسبة لأخطاء الأصدقاء ، وقوية بالنسبة لمآثرهم وعطائهم ، ولولا هذه الذاكرة المركبة لما طالت صداقة ، ولا استمرت علاقة إنسانية طوال رحلة العمر . . ولقد كانت مشكلتى فى ذلك الصيف وأنا أستعد للسفر إلى تلك المدينة الأوروبية أن صديقى هذا كان قد تمادى فى الاعتماد على تسامحى معه وتجاوزى عن هناته ، فأساء إلىَّ عن قصد أو غير قصد إساءة مؤلمة ؛ فامتلأتْ كأسى بالنسبة له ، ووجدتُ نفسى قبيل السفر. أتساءل : كيف سأقضى فى مدينته أسبوعين كاملين بغير أن نلتقى خلالهما ، والأصدقاء المشتركون بيننا كثيرون ، وسيعلم بالضرورة منهم بوجودى فى المدينة ؟! وكيف سأتعامل معه إذا اضطررتُ للقائه بغير أن ينعكس عتبى عليه فى فتور لقائى به ، وهذا ما لا أرضاه له أو لنفسى فى مثل هذه الظروف ؟!

وشغلتْنى هذه المشكلة حتى أصبحتْ همًّا ثقيلاً بالنسبة لى قبيل السفر ! وبعد تفكير «طويل» فيها انتهيتُ إلى أنه من الأفضل لى وله ألا ألتقى به وأنا مازلتُ عاتبًا عليه ما اعتبرتُه إساءة غير مفهومة لى ، لكيلا أعجز كعادتى عن التعامل معه بصدر سليم ، فيكون ذلك سببًا لتعميق المشكلة بدلاً من حلها . وارتحتُ إلى هذا الاختيار ، وشعرتُ بأننى لن

أقدر على سواه؛ لأننى للأسف واحد ممن يعجزون عن إخفاء مشاعرهم الداخلية تجاه الآخرين. . إيجابية كانت أو سلبية . . بل إنها تنعكس رغمًا عنى على صفحة وجهى ، ويتعذر علىَّ أن أتعامل بود ظاهرى مع من لا أجد له فى نفسى ودًّا حقيقيًّا . . كما أنى لا أرى نفسى مطالبًا بالتظاهر بغير ما أشعر به فى أعماقى تجاه الأصدقاء المقربين والأهل والأحباب، لأن تكلف المشاعر معهم لا يتفق مع عمق العلاقة ، ولأنه إذا جاز للإنسان أن يتعامل مضطرًّا مع مَن ينكر عليهم بعض سلوكهم تجاهه فى دوائر العمل والحياة ، محتفظًا لنفسه بمشاعره الحقيقية تجاههم، فإن ذلك لا يجوز له أبدًا فى دائرة الصداقة ، حيث لا أجد مبررًا لأن يُجالِسَ الإنسان فى أوقات سَمَرِه وصفائه من تتكدر مرآته الداخلية منه ، أو مَن لا يشعر بالصفاء التام تجاهه. . وهكذا استقر رأيى على السفر إلى هذه المدينة بغير الاتصال به مسبقًا ، وعلى قضاء الفترة المقررة لى فيها دون لقاءٍ معه .

ونفذتُ ما انتويتُه وأوصيتُ الأصدقاء المقيمين هناك بتجنب إبلاغه بقدومى إليهم ، وبالغتُ فى ذلك تجنبًا لحرج اللقاء معه دون صفح حقيقى فى داخلى تجاهه، وحَرَّمتُ على نفسى كل الأماكن والمظانِّ التى اعتدنا أن نلتقى فيها خلال وجودى فى مدينته ، وكلفتُ نفسى وأصدقائى رَهَقًا فى سبيل الالتزام بذلك ، فاعتذرتُ عن دعوةٍ للعشاء فى بيت أحد الدبلوماسيين المصريين بالمدينة لعلمى أنه سيكون من بين المدعوين إليه، واعتذرتُ عن حفلٍ مماثل فى أحد المطاعم لنفس

السبب، وتجنبتُ المرورَ أمام المقهى الذى اعتدنا اللقاء فيه طوال فترة إقامتى لكيلا نلتقى بالمصادفة فيه أو أمامه ، وكلما سألنى أحد الأصدقاء عن سبب ذلك ، أجبتُهُ بأنه لصالح صداقتنا ، وأن المسألة مسألة وقت لا أكثر . . تصفو النفس بعده ، وقد لا أحتاج حينذاك حتى إلى العتاب والحساب معه!

واحترم الأصدقاء رغبتى فى ذلك، ومضتْ فترة الأسبوعين فى بهجة خالصة ومتعة حقيقية بين أصدقاءٍ لا ينطوى أحدهم للآخر إلا على أجمل المشاعر .

وهنأتُ نفسى على نجاح خطتى ، وقوة عزيمتى . . ثم حان يوم السفر ، فاصطحبنى أحد هؤلاء الأصدقاء إلى المطار وأنهينا الإجراءات ، ووجدنا أمامنا بعض الوقت فاتجهنا إلى كافتيريا المطار لنحتسى القهوة ونتبادل حديث الوداع . . فلم نكد نمشى فى زحام المسافرين والمودعين بضعة أمتار ، حتى وجدتُ صديقى هذا يلكزنى فى جنبى ويقول لى هامسًا : لا تنظر خلفك!!

فسألتُه هامسًا بدورى : لماذا ؟

فقال : فلان خلفنا ببضع خطوات ومعه الدبلوماسى المصرى الذى كان ينبغى أن نتناول العشاء فى بيته منذ ليلتين!

ياربى . . تجنبتُ كل مظانِّ اللقاء به على مدى أسبوعين كاملين، وظننتُ أننى قد تجنبتُ الحرج معه . . فيكون لقاء المصادفة بينى وبينه

فى المطار وأنا أتأهب للعودة ؟! ماذا أفعل الآن ؟ وكيف أبرر له سفرى بغير الاتصال به ومقابلته طوال فترة إقامتى بمدينته ؟ وكيف ينعكس ذلك سلبيًّا على علاقتى به وأنا من تجنبتُ لقاءه طوال فترة عتبى عليه لكى نتجاوز هذه السحابة الثقيلة بعد بعض الوقت؟ . . حِرْتُ فيما أفعل . . ولم أجد مفرًّا من مواصلة المشى فى اتجاه الكافتيريا على أمل أن تغيب عنه رؤيتنا فى زحام المسافرين بالمطار . .. واتجهنا إلى الكافتيريا ، فاخترتُ أبعد مقعد فيها وجلستُ إليه موليًا ظهرى للمدخل . .

وجلسنا نحتسى القهوة فى صمت وارتباك، وقد تكدر صفوى بهذا الحرج المباغت . . فمضت بضع دقائق ظننتُ بعدها أنى قد نجوتُ من الموقف المحرج . . فلم أكد أطمئن لذلك حتى رأيتُ صديقى الذى يجالسنى قد انتفض واقفًا وهو يقول مرتبكًا : أهلاً سيادة السفير! !

ووقفتُ بدورى، فإذا بالدبلوماسى المصرى - وهو بدرجة سفير - يقف مع الصديق إياه خلفى مباشرة، ويمد يده لى مصافحًا ومبتسمًا، فأصافحه وأنا فى غاية الاضطراب ، ثم أنظر فأرى صديقى يقف إلى جواره فى جمود وقد تضرج وجهه بالاحمرار والغضب ، فأمد يدى إليه وأنا لا أكاد أراه من شدة الحرج والخجل . .

وإذا بالدبلوماسى اللمَّاح يقول لى بلهجة ذات معنى : اسمح لى أن أقدم إليك صديقك فلانًا ! !

فبلغ بى الحرج قمته ، وشعرتُ بأن السفير قد أدرك الموقف بينى

وبينه . . وأنهما لابد قد رأيانا قبل ذلك بفترة فى أبهاء المطار ، ولاحظا محاولتنا لتفادى اللقاء معهما . . فتتبَّعانا إلى الكافتيريا ، ولعلهما تحدثا خلال ذلك عن تلك الجفوة الطارئة بينى وبين هذا الصديق . . وأراد السفير أن يُذيب الجليد بينى وبينه بتقديمه إلىَّ بهذه الطريقة المسرحية ! ولم أعجب حين علمتُ أن السفير سيسافر معى على نفس الطائرة، لكنى عجبت حقًّا حين عرفتُ أن الصديق إياه من بين كل أصدقائه هو الذى جاء معه للمطار لوداعه !

فإذا كنتُ قد تذكرتُ فى هذه اللحظة كل الأمثال والحِكَم العربية عن الحَذَر الذى لا يُغنى عن قَدَر ، فلقد تذكرتُ أكثر منها ذلك المثل الدارج عمن يتمنى أن تنشق الأرض تحت قدميه لتبتلعه فينجو بذلك من موقف يشعر فيه بالإحراج والكسوف!

ألا لعنة الله على خطرات النفس التى تفسد على الأصدقاء القدامى بهجتهم السابقة بلقاء بعضهم بعضًا وتُحِلُّ محلَّها مثلَ هذا الحرج والضيق!

لقد حدث كل ما خشيتُهُ من قبل إذا تم اللقاء بينى وبين هذا الصديق قبل أن تتخلص الكأس مما يملؤها . . وبدلاً من أن نتصافى بعد قليل من الزمن وترجع صداقتنا إلى سابق عهدها . . ازداد الأمر تعقيدًا ، واعتُبِرْتُ أنا ـ فى الحساب الختامى ـ مُخْطِئًا فى حقه . . وليس صاحب حق عليه ! ولم أجد ما أدافع به عن نفسى سوى أننى قد رغبتُ فى ألا نلتقى إلا وأنا كسابق عهدى معه لا أحمل له إلا الود والمحبة . .

لكن شتان ما بين العتاب من موقف الاستعداد للتسامح والتجاوز عن الهفوات ، وبينه من موقف الحرج والشعور بالخطأ . .

فلقد سُحِبَتِ السجادة من تحت قَدَمَيَّ . . وتحولتُ من ضحية إلى جانٍ، وكل ذلك بسبب هذه الصدفة «السعيدة» فى مطار تلك المدينة الأوروبية ذات صباح !

ألا ترانى محقًّا إذن فى كراهية المبالغة الزائدة فى الحذر الذى لا يغنى عن قدر . . والخوف الشديد من الأشياء الذى قد يدعوها للمجىء إليك بدلاً من إبعادها عنك؟!

ولا فخـــــر

فى فيلم مصرى قديم، رجع الأب إلى بيته فوجد ابنه الصغير يستذكر دروسه ويقرأ فصلًا عن فتوحات نابليون ، وكعادة الآباء فقد وجدها فرصة لاستثارة حماس ابنه للنجاح والتفوق ، فقال له بلهجة ذات معنى: إن نابليون حين كان تلميذًا صغيرًا كان متفوقًا فى دراسته ويأتى ترتيبه الأول دائمًا على فصله .. وليس الخامس مثله!

ولم تَفُتِ «الغمزة» على الطفل الشقى . . فقال لأبيه على الفور . . ومن نفس «المقام» : إن نابليون كذلك حين كان فى عمر الأب الآن كان قد أصبح إمبراطورًا لفرنسا وليس موظفًا صغيرًا بإحدى الشركات ! فلم يملك الأب إلا أن يضحك لسرعة بديهة طفله ويزجره طالبًا منه الاهتمام بدروسه !

قفشة ذكية ؟ . . نعم . . ومحرجة أيضًا ، لكننا قبل أن نلوم هذا الطفل الشقى على إحراجه لأبيه بهذه المقارنة الظالمة ينبغى لنا أيضًا أن نتأمل ما تكشف عنه هذه المساجلة بين الأب وابنه من رموز ومعان !

فالمشكلة هى أن كل أب وكل أم فى الوجود يريدان لأبنائهما أن يكونوا دائمًا الأفضل والأنجح بين كل الأبناء ، ولتحقيق هذا الهدف فقد يسرف بعضهم فى استخدام أسلوب المقارنة بالغير لاستثارة حماس الأبناء ودفعهم للتفوق ، لكن المغالاة فى استخدام هذا الأسلوب تحقق دائمًا نتائج عكسية ، وبدلاً من أن تخلق لدى الأبناء الغيرة الإيجابية التى تدفعهم لبذل الجهد وبلوغ ما بلغه غيرهم من أهداف الحياة بجده واجتهاده، فإنها قد تثير السخط فى نفوسهم على ذويهم . . وقد تخلق لديهم السلبية التى تكتفى بالحقد على هؤلاء الآخرين الذين يلمع نجاحهم فى الأفق، فيجسم ـ بمفهوم المخالفة ـ قصور الأبناء وعجزهم عن مجاراتهم فى السباق . . وقد تخلق لديهم الإحساس بالإحباط والمرارة واليأس من أى تقدم ، مادام «الآخرون» سيظلون دائمًا فى عيون الآباء الأفضل والأنجح مهما بذلوا هم من جهد أو تكبدوا من عناء . . وقد

تتفاعل هذه الأحاسيس فى نفوس الأبناء فتسلمهم إلى الإحساس بالنقص تجاه القُرناءِ الناجحين .

أذكر حين كنتُ تلميذًا بالمدرسة الابتدائية ، أن أحد مدرسينا كان يغالى فى اتباع هذا الأسلوب الخاطىء فى حثنا على التفوق والالتزام بالسلوك القويم! . . وكنتُ حينذاك تلميذًا بفصل «ثالثة ثان»، فكان مُدَرِّسُنا لا يمل من عقد المقارنات الظالمة بين «خيبتنا الثقيلة» وبين نبوغ تلاميذ فصل «ثالثة أول» وتفوقهم ، وبين «همجيتنا» وسلوكنا البدائى، وبين تحضر تلاميذ هذا الفصل السعيد ورقيهم وسلوكهم المهذب .

فإذا دخل علينا الفصل متأخرًا بعض الوقت عن موعده لأنه كان مشغولاً مثلاً بالتسامر مع زملائه فى غرفة المدرسين فسها عن موعد الحصة ، ووجدَنا كعادة التلاميذ حين يغيب عنهم مُدَرِّسُهم يلهون ويعبثون ويصخبون ، وقف بيننا للحظات صامتًا و«متألمًا» ثم قال لنا بلهجة «درامية» حزينة إننا قد رسبنا للأسف فى «الاختبار» الذى أجراه لنا عن عمد، وأنه قد تعمد أن يتأخر عن دخول الفصل بعض الوقت ليرى كيف سيكون سلوكنا خلال غيابه، فإذا بنا كالعادة نتصرف بهمجية، فى حين أنه حين أجرى مثل هذا «الاختبار» عامدًا لتلاميذ «ثالثة أول» ودخل عليهم الفصل بعد ١٥ دقيقة من موعد الحصة، فوجد كل تلميذ منهم يجلس فى أدب وهدوء فى مقعده ويستذكر دروسه السابقة، أو يقرأ مُقدمًا درس الحصة القادمة ليكون على إلمام به قبل أن يبدأ !

أما حين يوزع علينا كراريسنا بعد اختبار الشهر ـ ومنا المتفوقون ومنا المتوسطون والراسبون ككل تلاميذ الدنيا ـ فإنه لا يدع الفرصة تمضى دون تأنيب وتقريع لنا ، لأنه فى حين ينجح منا مَن ينجح ويرسب من يرسب، فإنه يحار عند تصحيح كراريس «ثالثة أول» لأن كل التلاميذ متفوقون ويحصلون على الدرجات النهائية ، ولا فارق بين أولهم فى الترتيب وآخرهم !

أما حين يدق الجرس مؤذنًا بانتهاء اليوم الدراسى ونندفع كعادة الصغار للخروج من الفصل والفكاك من أسر المدرسة، فلم تكن تعوزه الفرصة حينذاك أيضًا للمقارنة بين سلوكنا الهمجى هذا ، وبين السلوك الراقى المتحضر لتلاميذ الفصل السعيد عند انتهاء اليوم الدراسى، وهم حين يدق جرس المدرسة يتمهلون فى الخروج من فصلهم . . ويرتبون حقائبهم فى هدوء . . ثم يودع كل منهم الآخر فى أدب متمنيًا له أوقاتًا سعيدة «فى ظل والديه» . . ثم يخرج فى وقار من المدرسة «آسفًا» لانتهاء اليوم الدراسى ولمَّا يشبع بعد من العلم والدروس ! !

وهكذا فى كل أوجه السلوك . . حتى استقر فى مخيلتى حينذاك أن هؤلاء التلاميذ الأفذاذ من «طينة» أخرى غير طينة البشر، وأنهم ليسوا فى الحقيقة سوى ملائكة صغار ترفرف بأجنحتها الرقيقة فوق بحر من الهمج هـم نحـن ـ ولا فخـر ـ وأمثالنا . . وحتى استقر فى وجدانى أنه هيهات أن نبلغ مواطىء أقدامهم مهما كَبَحْنا فى أنفسنا رغبات الطفولة وحاولنا الالتزام بالسلوك القويم والاجتهاد فى دروسنا ، إلى أن غبتُ ذات مرة

بضعة أيام عن الدراسة لوعكة صحية ألمَّتْ بى . . ورجعتُ للمدرسة مسلحًا بالشهادة الطبية التى تبرر غيابى عنها، فلم يمض وقت طويل على بدء الحصة الأولى حتى جاء فَرّاش المدرسة يستدعينى لمقابلة الناظر وتفسير انقطاعى عن الدراسة، واستأذنتُ فى الخروج مع الفَرّاش واصطحبتُ الشهادة الطبية معى، وعبرتُ فى طريقى إلى مكتب الناظر بموقع فصل الملائكة القريب، فإذا بى أسمع قبل أن أقترب منه ضجيجًا مخيفًا صادرًا عنه . . وتوقفتُ مذهولاً أمام باب الفصل المفتوح لأرى «الملائكة الأبرار» الذين لم يدخل إليهم مدرسهم بعد، وأفاجأ بهم وهم يتضاربون ويتعاركون ويتراشقون بالأقلام والأحبار والصواريخ الورقية، وقد اعتلى بعضهم مكاتبهم، ووقف البعض الآخر على حافة نافذة الفصل، وراح آخرون يدقون بعنف على أدراجهم المدرسية . . وملابسهم جميعًا مهوشة ، وشعورهم منكوشة ، وملامح وجوههم لا تشى أبدًا بالملائكية ولا بالمثالية التى رسمتُها لهم فى خيالى . . ولاحظ الفَرّاش وقوفى ذاهلاً أمام فصل الملائكة غير الأبرار هؤلاء . . ولم يدرك بالطبع عمق صدمتى فيهم أو فى أحلامى العاجزة من قبل فى أن أصل ذات يوم إلى أعتاب تفوقهم وسلوكهم الراقى وتهذيبهم .

وبلغت المفارقة قمتها حين أراد الفَرّاش حثى على مواصلة السير، فدخل فصل التلاميذ الأفذاذ وصاح فيهم مؤنبًا ولائمًا ومهددًا بإبلاغ الناظر عن سلوكهم الهمجى . . فانكمشوا خائفين والتزموا بعض الهدوء، ثم رجع الفَرّاش منتصرًا وسحبنى من يدى إلى مكتب الناظر !

ولأيام عديدة بعدها ، ظلت هذه الصورة تطاردنى وتثير عجبى وألمى وتساؤلى : أهؤلاء إذن هم التلاميذ المثاليون الذين تخيلتهم كالملائكة ذوات الأجنحة؟ إنهم بشر كالبشر لهم أخطاؤهم ولهم إيجابياتهم مثلنا ، فلماذا نَغَّصَ علينا أستاذنا حياتنا بعقد هذه المقارنة الكاذبة دائماً بيننا وبينهم؟

ولم يسعفنى عقلى وقتها لإدراك أن كل ما قاله لنا عنهم أستاذنا لم يكن سوى حيلة تربوية خاطئة من حيل المقارنة بالغير لاستثارة الحماس فينا للتفوق والالتزام، ولا لكى أفهم أن هذه الحيلة قد تجاوزت حدود الأمان بالمغالاة فيها ، وبإرهاقنا بمطالبتنا بما لا تسمح به طبيعة الطفولة من الالتزام الحديدى بالنظام والسلوك الملائكى الذى يصل إلى حد استذكار الدروس مقدمًا ، ومغالبة الرغبة فى الانطلاق من سجن المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسى!

لكنى شعرت رغم ذلك كله باللوم لأستاذنا الذى كاد يُشعرنا من حيث لا يريد بالنقص تجاه قرنائنا وبالعجز عن إمكان بلوغنا حد السلوك المقبول فى يوم من الأيام، ولا عجب فى إحساسنا بذلك ما دام هناك دائماً مَن يسبقنا على الطريق بأميال . . وهيهات أن نلحق به ذات يوم !

وهذا هو خطر اعتماد هذا الأسلوب الخاطىء فى التشجيع على التفوق والالتزام ، فالمقارنة بالغير . . ومحاولة إيجاد المثل الأعلى الذى يحتذيه

الإنسان أسلوب سليم فى التربية، ولكن بشرط عدم المغالاة فيه إلى حد مطالبة هذا الإنسان بما لا تسمح به طبيعة المرحلة التى يعيشها من عمره .. وبشرط أن يجىء ذلك عفويًا وباعتدال، ومع الاستعداد للاعتراف بمميزات مَن نطالبه بمواصلة الاجتهاد والتفوق لبلوغ الأهداف، أما المغالاة فى المقارنة بلا حساب وبلا مراعاة لاختلاف الظروف والقدرات فقد تجرنا إلى تضخيم فضائل الآخرين على حساب تقديرنا لفضائل أعزائنا ، وإلى المبالغة فى تقدير تفوق الآخرين على حساب تقديرنا لجهد الأعزاء واجتهادهم ، ولا عائد لمثل ذلك فى النهاية سوى إشعار هؤلاء الأعزاء بالعجز والنقص واليأس من تحقيق أى تقدم حقيقى فى الحياة !

فإذا كان التلميذ الشقى فى الفيلم القديم قد أضحك أباه رغمًا عنه حين ذَكَّرَهُ بما كان نابليون قد حققه فى حياته حين كان فى عمر أبيه ، فلقد أشعره أيضًا من حيث لا يقصد بنوع من الحرج الإنسانى لا ذنب للأب أو لأى إنسان آخر فيه، لأنه ليس كل البشر من العظماء والعباقرة، ولا هو من طبيعة الأشياء أن يصبحوا كلهم كذلك، فالنبوغ والعبقرية حالات فردية وستظل كذلك إلى نهاية الكون ، وليس من الحكمة أن نحاول استثارة حماس شاب لأن يكون إنسانًا ناجحًا فى حياته، فنذكّره مثلاً بأن «الإسكندر الأكبر» قد أخضع الولايات اليونانية المعادية لبلده مقدونيا وخرج إلى فتوحاته الخارجية فهزم الفرس وفتح مصر وسوريا والعراق ، ثم مات بالحمى وهو فى طريقه إلى الهند وأفغانستان ولما يبلغ عمره بعد الثالثة والثلاثين !

ولا هو من المفيد أن نذكّر مثل هذا الشاب بأن «رمسيس الثانى» كان على رأس جيوشه المظفرة التى يجول بها أراضى سوريا والعراق ذهابًا وإيابًا وهو فى الثامنة عشرة من عمره، أو بأن «نابليون» قد بلغ رتبة الجنرال فى الجيش الفرنسى وعمره ٢٥ عامًا ، وعبرَ جبال الألب بجيوشه ليهزم النمساويين وعمره ٢٩ عامًا !

ولا أيضًا أن نذكّره بأن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، قد وضع «أسامة بن زيد» على رأس جيش المسلمين لفتح الشام وعمره ٢٢ عامًا ، ولا بأن الرسول ﷺ قد أمّر على مكة بعد الفتح شابًّا عمره ١٨ عامًا اسمه «عتاب»، وفى مكة سادات قريش وأشراف العرب.

ناهيك عن معجزات باقى العباقرة والنابغين الآخرين ، ابتداءً من «موزار» الذى أَلَّفَ أولى سيمفونياته وهو فى التاسعة من عمره، إلى سيدنا «يوسف» الذى أدار ميزانية مصر بنجاح وهو فى سن الشباب ، إلى المليونير الأمريكى الشاب «بيل جيتس» عبقرى الكمبيوتر الذى ترك الجامعة وعمره ٢٠ عامًا وتفرغ لابتكار برامج الكمبيوتر ، وأسس شركته لبيع هذه البرامج، فإذا به يصبح «ملياديرًا» فى سن الواحدة والثلاثين، وإذا بهم يقولون عنه الآن إنه حين بلغ الثانية والأربعين كانت شركاته قد أصبحت تحقق كل يوم ربحًا صافيًا يزيد عن ١٠ ملايين دولار، وإنه حين يدخل فراشه لينام ٨ ساعات كغيره من البشر ينهض من نومه فى الصباح فيجد نفسه قد ربح أكثر من ثلاثة ملايين دولار بلا جهد منه سوى الاستغراق فى الأحلام السعيدة !

وغير هؤلاء كثيرون وكثيرون ، فإذا كنا نروى قصص نجاحهم وعبقرياتهم من باب الإعجاب بهم، والتأكيد على قدرة الإنسان على تحقيق المعجزات إذا أحسن استخدام قدراته وملكاته وإبداعاته ، وساعدتْهُ الظروف المحيطة به على إطلاق هذه القدرات ، فإننا نقول أيضًا إن العبقرية تظل فى النهاية حالة فردية محكومة بظروفها التاريخية والاجتماعية ، وليس من التربية السليمة أن نظلم أعزاءنا بالمقارنة الظالمة بينهم وبين أمثال هؤلاء العباقرة والناجحين كل يوم ، ولا فى كل مناسبة ، لأن المقارنة العادلة إنما تكون بين أكفاء فى القدرات وفى الظروف وفى الأهداف التى يسعون إليها . .

ولكل إنسان بعد ذلك ظروفه وقدراته التى تؤهله لأن يحقق نجاحه فى مجاله ويسعد بما حققه من خطوات كثيرة أو قليلة على الطريق الطويل . . ولا بأس بعد ذلك بأن يتطلع لما هو أفضل وأرفع ، بشرط عدم المغالاة فى الطموح الضارى الذى لا يراعى القدرات ويتعلق بالمستحيل ، ويقتل الروح والعلاقات الإنسانية ، ويفسد الأوقات بشرور الحقد على الناجحين ، والغيرة المَرَضِيَّةِ السلبية منهم .

فلسوف يبقى هناك دائمًا ومهما فعلنا مَنْ هم أفضل منا وأنجح فى كل المجالات ، ولن يمنعنا ذلك من أن نعجب بنجاحهم وبعبقرياتهم ، ولا من أن نرضى فى الوقت نفسه عما حققناه نحن بكفاحنا ، وعما أتاحته لنا ظروفنا وأقدارنا فى الحياة .

فإذا كان الأمر كذلك . . فلا تذكّرنى كل لحظة من فضلك بما حققه الآخرون حين كانوا فى نصف عمرى . . ولك علىّ ألا أذكرك وألا أعايرك بما حققه العظماء والعباقرة حين كانوا أصغر منك . .

وشكرًا لك إذا التزمتَ بهذا «الاتفاق» العادل بيننا !

أحبـــاء الحـياة

سبعض الأشخاص تحب الحياة حين تعرفهم فتبهج بها ، وتغنى لها مع الشاعر الغنائى الأصيل المرحوم « محمد على أحمد » :

غَنّيْتُ للدنيا   فمن ذا يُغَنّى لى ؟

وبعضهم تُزَهّدُكَ معرفتهم فيهم وفيها !

ولقد كان من حظى أن عرفتُ عددًا غير قليل من هؤلاء الأشخاص الذين يُضيئون الحياة بوجودهم فيها ، وتنقُص الدنيا الكثير من أُنسها وبهجتها بغيابهم عنها . ومن هؤلاء كان صديقى الفنان الكبير الراحل «محمد عبد المنعم رخا » أو « رخا » كما كان معروفًا لدى الجميع ، وكما كان يوقع رسومه الكاريكاتورية الجميلة فى أخبار اليوم وفى عشرات من الصحف والمجلات قبلها .

ولقد عرفتُ الفنان رخا فى نقابة الصحفيين فى أوائل الستينيات ، كنتُ مازلتُ محررًا تحت التمرين بالأهرام . . وكان هو نجمًا ساطعًا فى سماء الصحافة المصرية ، وفى قمة نضج السنين والشهرة ، وبالرغم من ذلك فلم أشعر لحظة واحدة حين عرفته بفارق السن بيننا ولا بفارق المكانة والشهرة ، فلقد كان فنانًا بطبيعته وشديد التواضع وسريع الألفة للآخرين ، يجتذبك إليه بسماحته وتواضعه وخفة ظله وسحر حديثه الممتع .

ومنذ اليوم الأول الذى عرفته فيه ، فُتنتُ بشخصيته الآسرة ، وباستعداده الفطرى للابتهاج بالحياة وارتشاف كل متعها البريئة ، وقدرته على إشراك الآخرين معه فى الابتهاج بالحياة والاستمتاع بها .

فلقد كان محدثًا بارعًا لا تمل حديثه ولا تشعر معه بالزمن ، وكان محبًّا للسهر لا يريد لليل أن ينقضى لكيلا يتفرق جمع الأحباب ويذهب كل منهم فى طريق .

وعلى عكس « ليل الصبّ » الذى لا يعرف مَن يكابده « متى غده » فى الموشح الأندلسى الشهير ، كان ليل رخا سريع الانقضاء حتى لَيشعر المرء بالأسف لسرعة انقضائه واضطراره لأن ينصرف عنه إلى قليل من النوم قبل أن يذهب إلى عمله .

وكان أكولاً يتذوق الطعام الجيد ويعشقه وَيَطْرَبُ له ، وينشد فيه الأناشيد ! ويستدرجك لمشاركته الطعام ويغريك به حتى لتجد نفسك بعد قليل وقد انسقتَ معه إلى الشراهة فى الطعام . كما كان ذواقة للطرب وصديقًا قديمًا لأم كلثوم وزكريا أحمد وبيرم التونسى ، ويحفظ ألحان زكريا وأشعار بيرم ويرويها ، ويحكى عن أم كلثوم وزكريا وبيرم الحكايات الممتعة ، وينسى نفسه أحيانًا وهو يلعب الشطرنج أو الدومينو فى النقابة، فيرفع صوته الجميل ببعض غنائهم ، فيفاجَأ بصيحات الاستحسان من حوله تطلب المزيد !

وكان مفهومه للوقت مختلفًا عن كثيرين غيره ، فلقد آمن بأن الجلسة الطيبة والصحبة المريحة لا يعدلها شىء فى الحياة ، فإذا جاء إلى النقابة فى الظهر وانعقدتْ منافسات الدومينو الرباعية مع أصحابه ومن حولهم المشجعون والأنصار ، قد يقضى النهار كله والمساء والليل فى نفس الجلسة ونفس المكان ، ولا بأس بذلك مادام الطعام يجىء حين يحتاج إليه ، ومادامت فناجين القهوة السادة متاحة فى كل وقت ، ومادامت سجائره التى لا تكاد تنطفىء متوفرة ، فإذا خلا المكان عليه وعلى «شِلّتِه » فى الهزيع الأخير من الليل ولم يعد هناك بد من الانصراف رحمةً

بحارس النقابة الذى يحتاج لإغلاق المبنى والاستسلام للنوم ، خرج الأحباب إلى الشارع ورخا يتساءل : إلى أين نذهب ؟

فمن كان متزوجًا منهم أو ينتظره عمل فى الصباح الباكر استأذن فى العودة لبيته ، وهيهات أن ينجح فى ذلك قبل عناء طويل مع رخا الذى يذكره بيت عمر الخيام :

فمـــا أطـــال النـــوم عمـــرًا

وما قَصَّـرَ فى الأعمار طولُ السهر

ويؤكد له أن الأوقات البهيجة لا تعوض ، ويُرْوَى عنه أنه كان فى فترة من فترات حياته يرسم عشرين مجلة أسبوعية ، ويعمل ليومين أو ثلاثة أحيانًا بغير نومٍ ، لأنه كان « يستَخسر » أن ينام إذا وجد الأحباب والأصحاب بعد نهار العمل الطويل ، ويعوض قلة النوم فى نهاية الأسبوع .

فمِنّا مَنْ كان يعجز عن مقاومة سحر رخا وندائه له بمواصلة السهر حتى الصباح ، وقد كنتُ منهم فى معظم الأيام ، ومنا من كان يشفق على نفسه من ذلك وَيتَحَيَّنُ الفرص للإفلات آمِلاً فى بضع ساعات من النوم ، ولقد روى لى رخا نفسه أنه كان يسهر ذات ليلة مع بيرم التونسى ، فتنقلا طوال الليل بين عدة مقاهٍ وجلسات ، إلى أن وصلا ميدان « طلعت حرب » فى الرابعة صباحًا فى طريقهما إلى مقهى يسهر للصباح بميدان التحرير ، وبيرم التونسى يبدو له مستسلمًا وغير

معترض، إلى أن فوجىء به يعدو مبتعدًا عنه إلى شارع جانبى وهو يقول له ضاحكًا :

ـ تصبح على خير يا رخا !

والحق أنها كانت معادلة صعبة بالفعل لكل أصدقاء رخا أن يستجيبوا لإغراء السهر معه كل ليلة حتى الصباح ، وبين أن ينجحوا فى نفس الوقت فى أداء التزاماتهم الضرورية تجاه العمل والأسرة وغير ذلك من الالتزامات ، فالرجل لا يرجع إلى بيته إلا مع تباشير الصباح الأولى ، وبعد أن تستيقظ القاهرة من نومها وتمتلىء الشوارع بالساعين إلى أرزاقهم، وينام حتى الظهر ويؤدى عمله بأخبار اليوم فى المساء حين يشاء ، ولا يرتبط إلا برسم عدد محدود من الصور فى الصفحة الأخيرة من الصحيفة كل أسبوع بعد أن شبع عملاً وملأ الصحف والمجلات برسومه الساخرة على مدى ثلاثين عامًا ، وكان أول رسام كاريكاتير مصرى يُمَصِّر فن الكاريكاتير بعد الفنانين الأجانب ، وكنا نحن شبابًا نبدأ رحلتنا العملية فى الحياة ونحاول أن نثبت وجودنا ونحقق نجاحنا ، لهذا فقد كان صعبًا علينا بحق أن نتفرغ بكل طاقتنا للعمل ، ونحن نسهر كل ليلة حتى الصباح مع هذا الفنان البوهيمى الساخر .

وأذكر أن رئيسى بالأهرام وقتها ـ الأستاذ « صلاح هلال » ـ قد حذرنى من مواصلة السهر مع رخا كل يوم لكيلا يؤثر ذلك على عملى وصحتى ، لافتًا نظرى إلى أنه هو نفسه يعرف سحر رخا وجلساته الممتعة ، وقد

انضم إليها فى فترة من فترات عمره قبل أن « ينقذ » نفسه من إغرائها ويتفرغ للعمل !

لكنى لم أكن أستطيع مقاومة نداء هذا الفنان العاشق للحياة ، وكنت أعوض ارتباطى به بتقليل ساعات نومى ، وبذل كل ما أستطيع من جهد فى عملى خلال ساعات النهار التى نفترق فيها ، وأتبع « خطته » المجربة من قبل فى النوم طوال نهار وليل يوم الجمعة من كل أسبوع لتعويض الإجهاد وقلة النوم .

والحق أن أكثر ما كان يفتننى فى شخصية المرحوم رخا هو روحه السمحة الطيبة التى لا تشوبها أية شائبة من الحقد والكراهية أو المرارة ، بالرغم مما عاناه من ظلم عجيب فى بعض مراحل حياته ، وبالرغم من انكسار قلبه بمحنة صديقه الصدوق المرحوم الأستاذ «مصطفى أمين » حين حُوكِمَ فى عهد « عبد الناصر » وسُجِنَ تسعة أعوام حتى أُفْرِجَ عنه فى عهد « أنور السادات » ، وبافتقاده لصحبة صديقه الآخر المرحوم «على أمين » بعد هجرته من مصر ، بل وبالرغم أيضًا من انكسار قلبه فى مرحلة سابقة لمعرفتى به بوفاة أحب أبنائه إلى قلبه "عادل" .

أما الظلم الذى تعرض له رخا فى حياته فلقد كان بحق ظلمًا فادحًا وقاسيًا .

ففى فترة الانتشار فى حياته التى كان يرسم فيها حوالى عشرين مجلة فى مصر ، كان يقدم رسومه لمجلة تسمى « المشهور » ، أصدرها فى

الثلاثينيات النبيل « عباس حليم » رئيس حزب العمال وأحد أفراد الأسرة المالكة السابقة بمصر ، وفى أحد الأيام أضرب عمال شركة الأتوبيس الأجنبية بالقاهرة " ثورنكروفت " ، فاعتدى عليهم رجال الشرطة وألقى القبض عليهم ، فرسم رخا على غلاف المجلة صورة يظهر فيها المدير الأجنبى للشركة وهو يطعن عاملاً فى ظهره بخنجر ، ورئيس الوزراء وقتها فى ملابس رجل الشرطة يهرول ناحية العامل وينهره لأنه قد لَوَّثَ ملابس الخواجة بدمه القذر !

وألقت النيابة القبض عليه بتهمة إهانة رئيس الوزراء ، وقبل أن يتوجه إليها سلم للمجلة رسوم الأعداد التالية ، وحققتْ معه النيابة فى التهمة الموجهة إليه ، ووعده رئيسها بالإفراج عنه بعد يومين ، لكنه فوجىء بعد ذلك باستدعائه مرة أخرى للنيابة للتحقيق معه فى تهمة أخرى لم تخطر له من قبل ، فلقد صدر العدد الجديد من مجلة المشهور وعلى غلافه صورة رسمها رخا لمحرر يحمل أوراقًا فى يده ، وعلى هذه الأوراق عبارات مكتوبة بخط دقيق تحمل سبابًا فاحشًا للملك « فؤاد » ورئيس الوزراء « إسماعيل صدقى » !

ولم يكن رخا هو الذى كتب هذه العبارات النابية ، وإنما أضافها أحد عملاء الحكومة إلى الرسم ليوقع به ويتيح للحكومة فرصة محاكمته وسجنه

وتكاتفت ظروفٌ معاكسةٌ عديدة على الرسام الشاب خلال محاكمته

عن هذه « الجريمة » . . فلقد كان القاضى الذى سينظر قضيته رجلاً عادلاً من أعلام القضاء المصرى ، وصار وزيرًا للعدل فيما بعد ، هو المرحوم «ياسين أحمد باشا » ، لكن رئيس النيابة الذى كان يحقق فى القضية مرض " فجأة " ، فسُحِبَتْ القضية من دائرة ياسين أحمد باشا وأُحيلت إلى دائرة قاضٍ آخر من أنصار نظام الحكم كان مرشحًا لمنصب ناظر الخاصة الملكية . . فما أن انتقلتِ القضية إلى دائرته حتى شُفِيَ رئيس النيابة على الفور من مرضه " السياسى " ورجع إلى عمله .

ونظر القاضى المرشح للمنصب الكبير قضية رخا ، فلم يكن عادلاً مع المتهم ولا أمينًا معه ، فلقد اعترض رخا على خبير الخطوط الذى انتدبتْهُ المحكمة لسوابقه العديدة فى رفض تقاريره والطعن فيها من الناحية الفنية ، فرفض القاضى طلب المتهم ، وطلب رخا خلال إحدى الجلسات أن تقوم المحكمة باستكتابه واستكتاب الحاضرين فى الجلسة، وعَرْض خطوطهم على الخبير ليميز من بينها كاتب هذه العبارات النابية ، فرفض القاضى طلب المتهم ، ولو كان قد استجاب له لما قضى بسجنه ، إذ كان الشخص الذى كتب تلك العبارات بين الحاضرين فى نفس الجلسة ، وكان من المحتمل أن يكتشف الخبير خطه لو كانت العدالة هى الهدف وليس الانتقام .

وهكذا تكاتفت كل الظروف ضده وصدر الحكم بسجنه أربع سنوات ، وتأيد الحكم فى الاستئناف لقلة خبرة المحامى الشاب الذى يدافع عنه .

ودخل رخا السجن فى جريمة لم يرتكبها ولم تخطر له على بال ، وكان فى ذلك الوقت زوجًا وأبًا . . فأعطاه اللّه - كما قال لى - الصبر على ما تعرض له من ظلم ، والقدرة على أن يضحك من نفسه ويُضحِكَ الآخرين من حوله بالرغم من ذلك !

وقال لى فيما رواه من ذكريات عن هذه المحنة الأليمة فى حياته :

- « لم أُمْضِ السنوات الأربع فى سجنى ألعن الظلم أو ألعن الرجل الذى دسَّ عَلَىَّ هذه الكلمات النابية ليعين الحكومة على الانتقام منى ، وإنما نسيتُ أننى مظلوم ، وتآلفتُ سريعًا مع الحياة فى السجن ، ورحتُ أرسم شخصيات المساجين وضباط السجن والمأمور ، وأضحك وأثير ضحكات المساجين والسَّجّانين من حولى ، وعيننى نائب المأمور وقتها «محمود طلعت » خطاطًا بالسجن ليعفينى من الأعمال الأخرى المهينه داخل السجن ، وطلب منى كتابة لوحات لغرف المأمور ونائبه والمكتبة وعنابر السجن ، فكنتُ أكتب عبارة " حجرة المأمور " فى أسبوع لأطيل من فترة خروجى من الزنزانة كل يوم من الصباح حتى المساء ، وأكتب عبارة " نائب المأمور " فى عشرة أيام ، وكلمة " المستشفى " فى ثلاثة أسابيع ، ومحمود طلعت يبتسم فاهمًا وراضيًا ومشجعًا لى على أن أُبطىء من عملى أكثر وأكثر !

ثم انضم إلىَّ فى السجن الشاعر الفكاهى والأديب الراحل «عبدالسلام شهاب » فى جريمة رأى مماثلة ، فحوّلْنا السجن معًا إلى

«سيرك » تتعالى فيه الضحكات كل يوم ، ويبتهج ضباط السجن بمشاهدة ومتابعة طرائفه » !

ومضت هذه المحنة القاسية فى حياته ، وغادر السجن بعد أن فقد آخر ما كان قد ورثه عن أبيه من أرضٍ زراعية باعتها الأسرة لتستعين بثمنها على حياتها خلال فترة سجنه .

ورجع رخا للحياة والسهر ورسم الكاريكاتير فى الصحف والمجلات، وبعد ست سنوات من مغادرته السجن تقدم بأوراقه إلى نقابة الصحفيين لقيده فى جدولها ، فكان رئيس لجنة القيد هو المستشار «ياسين أحمد باشا » الذى كان مقدرًا له أن ينظر قضيته فى البداية ، فرحب به المستشار بحرارة وأيد بحماسٍ قيده فى نقابة الصحفيين ، ثم قال له إنه عندما بدأ يقرأ أوراق قضيته قَبْلَ سحبها من دائرته استوقف نظره أنه لم يستطع قراءة العبارات المنسوبة إليه فى الرسم إلا بالعدسة المكبرة ، فى حين أن سكرتير رئيس الوزراء الذى قَدَّمَ إلى النيابة البلاغ ضده قد أرسله للنيابة من مستشفى الدكتور « صبحى » للعيون بعد إجراء جراحة دقيقة فى عينيه ، فكيف استطاع قراءة هذه الحروف الصغيرة جدًّا ؟ ولهذا فقد أحس أن القضية ملفقة ضده ، وتمنى لو كان قد حقق ظروفها وفَصَل فيها !

ومن عجائب القدر أن الشخص الذى اكتشف رخا بعد عدة سنوات أنه هو الذى دسَّ عليه هذه الكلمات النابية ، وكان يطمح من وراء ذلك

إلى أن يجنى ثمرة خسّته ودناءته من حكومة صدقى باشا ، قد قلبت له الأيام ظهرَ المجن – كما يقولون – بأسرع مما كان يتوقع ، وسقطت حكومة صدقى باشا بعد ذلك بشهور ، وانفض عنه الأنصار والطامعون ، ووجد هذا الشخص نفسه خلال فترة قصيرة بلا منصب فى الحزب ولا عمل فى صحيفته ، وتدهورت أحواله للنهاية ، فانصرف عن العمل الحزبى والصحفى ومرض مرضًا شديدًا كاد أن يُعْجِزَهُ عن الحركة ، فكان فى أخريات أيامه يَتَكَفَّفُ بعض زملائه القدامى فى الصحافة ، وكان مِن بين مَن مدّوا إليه أيديهم بالإحسان هذا الفنان البوهيمى الغريب رخا ! فلقد ذهب إليه ذات ليلة فى نقابة الصحفيين وقال له باكيًا : سامحنى يا رخا !

فلم ينهره أو يعنفه ، وإنما أشاح بوجهه عنه قائلاً له : إن الله العلى القدير هو وحده من يعفو ويصفح ، ثم مدَّ إليه يده بمنحة مالية أخذها الرجل وانصرف ، ورخا يرقب مشيته الزاحفة وهيئته الرثة ويتعجب لتصاريف القدر !

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ـ الآية ٣٣ من سورة النحل .

ولم يكن ذلك وحده هو ما تعرض له الفنان رخا من محن فى حياته ، فلقد كابَد الإحساس بالغربة النفسية فى مرحلة سيطرة الماركسيين على صحف أخبار اليوم التى يعمل بها ، وكابَد الإحساس " باليُتْم " الفنى

والصحفى حين سُجِنَ مصطفى أمين وهاجر على أمين ، ولم يسترد طمأنينته الهاربة إلا بعد الإفراج عن مصطفى أمين وعودة على أمين ، واكتمال صحبة الزمن القديم فى حياته .

أما ما عاناه فى حياته من متاعب مالية بسبب إسرافه الشديد وعدم تقديره لقيمة المال أو احترامه له طوال حياته ، فلقد كان كثيرًا كثيرًا ، ويكفى أنه قد اضطر لبيع " فِيلَّتِهِ " التى أقامها بكفاح السنين فى مدينة الصحفيين ليسدد ديونه ويفى بالتزاماته تجاه أبنائه ، فباعها عام ١٩٧٣ بـ ٢٣ ألف جنيه فقط لا غير ، ولم تمض سوى شهور حتى وقعت حرب أكتوبر واشتعلت أسعار الأرض والعقارات بمصر ، فإذا بهذه الفيلاّ نفسها تعرض للبيع بثمنٍ يتخطى المليون بعد ثلاث أو أربع سنوات فقط من بيعه لها ! ولعل ثمنها الآن يزيد على بضعة ملايين . ومع ذلك فلقد عاش حياته ضاحكًا متسامحًا مع الحياة .

وفى صباح يوم ٨ أبريل عام ١٩٨٩ توقف قلب هذا الفنان العاشق للحياة عن النبض ، لكن الحديث عنه لا ينتهى ولن يتوقف ، ولعلّى أرجع إليه مرة أخرى إذا أَذِنْتَ لى بذلكْ .

غريب .. فى بيتى !

أعانى من حالة « انعدام وزن » أرجو ألا تستمر معى طويلاً !

فلقد شهدت حياتى فى الفترة الأخيرة تغيرًا دراماتيكيًا هامًا هو تغير مكان إقامتى من مسكن عشت فيه ثلاثين عامًا إلى مسكن جديد انتقلت إليه منذ أيام ، ومن « جوار» عرفته وألفته إلى جوار غريب عنى لم آلفه بعد .. ولم يألفنى .

فبعد تردد طويل استغرق بضع سنوات ، حزمتُ أمرى أخيرًا وقررتُ الانتقال إلى مسكن أوسع من مسكنى القديم وأكثر تلبية لاحتياجات أسرتى ، ونفذتُ هذا القرار « بشجاعة » نفسية أرجو ألا تتخلى عنى فى أية لحظة فأقْفلُ راجعًا إلى بيتى القديم !

ولكى تدرك عمق هذه « الشجاعة » التى افتقدتُها طويلاً ، سأقول لك فقط إننى كنت أفكر فى تغيير مسكنى والانتقال منه إلى مسكن أوسع منذ أكثر من عشر سنوات كاملة ، أى منذ كبر الأبناء وضاق بهم المسكن ولم يعد يلبى احتياجاتهم وتطلعاتهم المشروعة ، لكنى فى كل مرة أقدمتُ فيها على محاولة تغيير المسكن باءت محاولتى بالفشل لأسباب «عملية » أو « نفسية » ، فأما الأسباب العملية فهى أن أكتشف مثلاً أن المسكن الجديد الذى أوشكتُ على الارتباط بشأنه ليس أفضل كثيرًا من مسكنى القديم ، أو أن أكتشف فيه عيوبًا تقنعنى بالانصراف عنه ترقبًا لفرصة أفضل ، أو أن أضيق بشروط مالكه وأرى فيها تعنتًا لا مبرر له ، إلى آخر هذه الأسباب العملية المقبولة .

أما الأسباب النفسية ، وهى التى تكمن غالبًا وراء تضخيمى للمبررات العملية لرفض المسكن الجديد ، فهى أنى قد ارتبطتُ بمسكنى القديم هذا نفسيًا ومعنويًا منذ سنوات طويلة ، ووثّقت الأيام والأعوام روابطى به وبالجوار كله ، حتى لم أعد أتخيل لنفسى حياة أخرى بعيدة عنه ، فعرفتُ فيه « البشر » من جيرانى وأصحاب المحال التجارية التى تقع أسفله وإلى جواره وعرفونى ، وتوثقت الروابط بيننا حتى لم أعد

فى سنواتى الأخيرة بهذا المسكن أحتاج لتقديم نفسى إلى أحد عند الاحتياج إلى أية خدمة من الخدمات المعيشية المألوفة ، وإنما يكفى لكى أحصل عليها أن أتصل تليفونيًّا بمن يستطيع أداءها لى من أصحاب المحال المجاورة لتتم على الفور ، وليس بين الخَيِّرِينَ بعد ذلك حساب ، بل لعلى أجادل من أدى لى هذه الخدمة طويلاً لكى يريحنى ويحدد أتعابه ، فيرفض غالبًا ويتركنى حائرًا فى تقديرها ، فإذا استجاب للإلحاح وحدد مبلغًا معينًا لهذه الأتعاب ، وجدتنى أقدم له أكثر مما طلب لثقتى فى أنه قد جاملنى بتخفيض الأجر بعض الشىء . أما سكان العمارة التى أقمتُ فيها ٢٩ عامًا كاملة فقد عرفتُ معظمهم وشاركتهم مناسباتهم الحزينة والسعيدة على السواء ، وألفتُ أصواتهم التى تتسلل إلىَّ عبر نوافذ شقتى وَخبرتُ منها بعض أحوالهم ، كما خبروا هم كذلك بعض أحوالى ، وحين أقمتُ وحيدًا فى مسكنى بهذه العمارة قبل الزواج وحتى بعد أن تزوجت فيه وأنجبتُ الأبناء ، فلقد صحوت أكثر من مرة على رنين جرس الشقة فى السابعة صباحًا وفتحتُ الباب مستطلعًا ، فإذا بأحد جيرانى الساعين إلى عملهم فى هذا الوقت المبكر من الصباح قد لاحظ أثناء هبوطه درَج السلم أننى قد نسيت مفتاح الشقة فى الباب من الخارج حين رجعتُ مجهدًا قرب الفجر ، فيحيينى الجار الطيب تحية الصباح مبتسمًا وهو يشير إلى المفتاح فى قفل الباب، وأشكره بحرارة وأسحب المفتاح وأرجع إلى نومى .

فأما جارتى الأقرب إلى مسكنى فقد تحولتْ علاقة الجوار معها إلى

صداقة عائلية حميمة منذ سنوات طويلة ، وما من مرة اشترت لنفسها شيئًا رأتهُ جميلاً فى الأسواق وهى فى طريق عودتها من مدرستها التى تعمل مديرة لها إلا واشترت لنا مثله بغير طلب منا ، لثقتها فى أننا سنبتهج لذلك ، وسوف نسعد بالاستفادة من خبرتها الثمينة بالأسواق والاحتياجات المنزلية ، وقد أنقذتنى هذه الصداقة العائلية ذات يوم من مأزق كاد يفسد علىّ إحدى إجازاتنا العائلية القليلة ، فلقد اصطحبتُ أسرتى ذات مرة إلى قرية سياحية بالإسماعيلية لقضاء إجازة العيد ، وخططتُ أن يرجع إلىّ السائق فى هذه القرية بعد يومين ليتسلم منى باب بريد الجمعة بعد أن أكتبه للأهرام ويتوجه به إلى المطبعة ، واستقررنا فى الشاليه الصغير الذى نزلنا به ، وبدأنا فتح الحقائب ، فإذا بى أكتشف أننى قد نسيتُ ملف بريد الجمعة الذى سأكتب الباب منه على مكتبى بالشقة ، وأصبح الحل الوحيد لهذا المأزق هو العودة للقاهرة لكتابة الباب الأسبوعى وضياع يومين من إجازتى على الأقل ، فاكتأبتُ لذلك كثيرًا وبدأتُ أفكر فى العودة للقاهرة بنفس السيارة التى حملتنا إلى هذا المكان ، فإذا بهذه الصداقة العائلية الحميمة تتدخل فجأة لكيلا تحرمنى من الإجازة العائلية ، وإذا بى أكتشف فى هذه اللحظة فقط أن زوجتى تترك منذ سنوات طويلة نسخة من مفتاح شقتنا لدى هذه الجارة الفاضلة تحسبًا للمواقف الطارئة ، كما أن هذه الجارة تترك أيضًا نسخة من مفتاح شقتها لدينا لمواجهة هذه المواقف ، فاتصلتْ زوجتى بصديقتها وطلبتْ منها دخول الشقة ، والبحث عن الملف المطلوب إلى أن يأتى إليها

السائق ، وقبل غروب الشمس كان قد رجع إليناحاملاً الملف المفقود ، ونعمتُ بإجازتى كما خططتُ لها من قبل ، وفهمتُ فى ذلك اليوم فقط سر هذا المفتاح الغريب الذى كنتُ أراه متدليًا من مكان تعليق المفاتيح بجوار الباب منذ سنوات ولا أجد له تفسيرًا ! وعرفتُ أنه مفتاح شقة جارتنا هذه ، وأننا نقوم عنها خلال غيابها فى عملها ـ بعد أن خلا عليها المسكن بزواج بناتها ـ بفتح الشقة فى غيابها لقارىء عدّاد الكهرباء وعداد الغاز .

وبدرجة أقل تفاوتًا وثّقت العشرة وطول الجوار بينى وبين كثيرين من سكان العمارة ، فعرفتُ منهم الطبيبة الشابة ، والأم الرءوم لطفلين صغيرين كانا أول من عرف ابنى من أصدقاء الطفولة ، ولمستُ حنانها الزائد بهما ونفورها الشديد من استخدام الشدة معهما فى أى شىء ولو من باب التأديب المشروع ، حتى تساءل البعض عن « حكمة » هذا التساهل والحنان الزائد بهما ، إلى أن فوجىء الجميع بعد بضعة أعوام برحيلها عن الحياة بالمرض العضال وهى فى عنفوان شبابها ، و « فهموا » لماذا آثرتْ ألا تأخذ طفليها بالشدة وهى التى كانت تحس إحساسًا باطنيًّا عميقًا بأنها سوف تفارقهما فى القريب العاجل . . رحمها الله وأحسن مثوبتها .

وعرفتُ كذلك هذه الفتاة الأجنبية التى كنتُ أراها تهبط الدرج من الدور السابع بنشاط غريب وهى ترتدى فستانًا محتشمًا وتبادر مَن تلقاه فى الطريق بتحيته بعربية مكسرة قائلة : السلام « أَليكم » ، واكتشفتُ

زوجة ألمانية لشاب من الجيران تزوجها فى ألمانيا حين هاجر إليها فى السبعينات ورجع بها قبل سنوات ، فأخلَت له والدته مسكنها بالعمارة ، وانتقلتْ هى للإقامة مع ابنتها المتزوجة ، واعتدتُ كلما رأيتها أن أحييها بود وترحيب ، ثم لم يمضِ وقت طويل حتى رأيتها ترتدى الطرحة البيضاء حول شعرها ووجهها فتبدو فى صورة ملائكية جميلة ، وتناقل السكان خبر اعتناقها الإسلام وانتظامها الشديد فى الصلاة والصيام ، ومجاهدتها الدائبة مع اللغة العربية لكى تقرأ القرآن الكريم بلغته العربية وتفهمه .

ثم لم تمض سنوات أخرى حتى رحل زوجها عن الحياة وهو فى عنفوان صحته ، فنهضتْ لتحمل مسئوليتها عن ابنيها بشجاعة ، وعملتْ بمساعدة السفارة الألمانية فى عمل ملائم ، وأشاد الجيران بالتزامها الدينى والأخلاقى وحسن تربيتها لابنيها ، ووفائها لذكرى زوجها ولأسرته .

كما عرفتُ أيضًا ضابط الجيش الكبير الذى يقيم بإحدى شقق العمارة، ويسعد بزوجته الفاضلة وأبنائه الثلاثة المهذبين ، وكنتُ أراه خارجًا مع أسرته فى الإجازات أو عائدًا معها من إحدى الزيارات العائلية سعيدًا مبتهجًا راضيًا عن نفسه وأسرته وحياته ، فإذا بالأقدار تتجهم له فجأة وينكسر قلبه بمصرع أحد ابنيه على طريق القاهرة ـ بورسعيد فى حادث سيارة ركبها مع بعض أصدقائه لشراء بعض الملابس المستوردة من السوق الحرة ، وكان مقررًا أن يصطحب معه شقيقه الأصغر إلى نفس

هذه الرحلة المشئومة ، لكنه تراجع عن السفر معه فى اللحظة الأخيرة فكُتِبَتْ له النجاة ، وحين دخلتُ مسكنه لأول مرة معزيًا ومواسيًا رأيته حطامًا يحاول التماسك والتصبر بجهد جهيد .

ثم دارت الأيام دورتها وكبر الابن الأصغر وأصبح ضابط شرطة ، وكبرت الابنة الأخرى وتزوجت ، وكنت فى مسكنى وحيدًا صباح أحد أيام الجمعة وأسرتى فى بيت الأهل ، فإذا بجرس الباب يرن ، وأجد أمامى هذا الابن الشاب نفسه دامع العين يرجونى فى خجل مساعدته فى نشر نعى والده الذى لاقى وجه ربه قبل ساعات بالأهرام ، فدعوته للدخول ، واتصلتُ بالأهرام وأمليتُ نعى الوالد الراحل ، وقدمتُ للابن الحزين تعزيتى وزرتُ مسكنه مواسيًا ومعزيًا .

وشهدتُ أيضًا فى هذه العمارة دورة الزمن بمن فيها ، فرأيتُ الطفلة التى كنتُ أداعبها على درج السلم كلما التقيتُ بها تتحول مع الأيام إلى فتاة باهرة الجمال يتنافس الشباب على جذب اهتمامها ، ثم لم ألبث أن سمعتُ ذات يوم ضجيج الفرح وأصوات الغناء والموسيقى تتعالى من شقتها ، وأدركتُ أن سهام الحب قد حسمت المنافسة حولها لصالح شاب كثيرًا ما رأيته يتسلل فى المساء إلى الدور الذى تقيم فيه ويدق باب شقة هذه الفتاة برفق ، فتفتح هى له « شراعة » الباب القديم فى حذر وتتبادل معه الهمس والكلام خلسة من أبويها ، فإذا استشعرا شيئًا مريبًا سارعتْ بغلق الشراعة ، وهرول الشاب مبتعدًا . وفى إحدى هرولاته هذه اصطدم بى ثم سارع بالفرار معتذرًا !!

كما شهدتُ كذلك الفتاة الأخرى الجميلة التى كانت تشكو من قسوة أبيها فى معاملتها ، ورثيتُ لحالها طويلاً وتعاطفتُ معها تعاطفًا صامتًا ، إلى أن كنتُ فى مسكنى ذات صباح ، فإذا بالباب يدق بشدة ، وإذا بشقيقها الأصغر يهتف بى مفزوعًا : الحق فلانة يا أنكل انتحرت ! فأهرول معه بملابس البيت منزعجًا إلى مسكنها وأجدهما وحيدين فى غياب أبويهما ، وقد ابتلعتِ الفتاة الجميلة بضعة أقراص من الإسبرين ، فلم أفكر فى الاتصال بالإسعاف أو طلب الطبيب تجنبًا للفضيحة العائلية ، وإدراكًا منى لعدم جدية محاولة الانتحار ، وإنما اتجهتُ إلى المطبخ وأذبتُ كمية كبيرة من ملح الطعام فى كوب كبير وأعطيته للفتاة لتشربه على جرعات وتبدأ فى إفراغ معدتها ، وأوصيت أختها بأن تصنع لها شرابًا ساخنًا ورجعت إلى مسكنى مطمئنًّا لانتهاء الأزمة . والتقيت بالأم بعد ذلك بالصدفة على درج السلم فلمحت العرفان الصامت فى نظرة عينيها ، وسمعت كلمة شكر خافتة منها . . أما أبوها ، فألتقى به فلا ألمس منه شكرًا ولا عرفانًا ، وأفهم من ذلك أن الأم والابنتين قد أخفين عنه القصة كلها تجنبًا لمضاعفة المشكلات مع أب مزعج مثله !

كما شهدتُ أيضًا الغادة الهيفاء التى كانت تنزل من سيارة يقودها شاب أمام باب العمارة لترجع إلى مسكنها ، فيرقبها بواب العمارة فى ارتياب وشك ويتجهم فى وجهها ويعاملها بشىء من الازدراء إعلانًا لرفضه هذا السلوك ، وتتحمل هى نظراته القاسية لفترة من الزمن إلى أن يجىء يوم ويدخل معها هذا الشاب نفسه باب العمارة لطلب يدها من

أبيها ، فيراجع البواب نفسه فى طريقة معاملته لها ، ويرحب بالشاب بحرارة ويصطحبه فى المصعد إلى شقة الأسرة مبتهجًا ، ثم رأيتُ هذه الغادة الهيفاء نفسها وقد استقرت مع زوجها فى مسكن أمها تظهر عليها علامات الزمن تدريجيًّا ، فينتفخ بطنها مرتين أو ثلاثًا ، ويختفى القوام الرشيق ويحل محله قوام برميلى يعلن تغير الأحوال وانتهاء مرحلة الرشاقة والريجيم للأبد .

أما أصحاب المحال التجارية التى تقع تحت نفس العمارة فلقد تشابكتْ روابطى بهم ، وعمقت الأيام من صداقتى لهم وكثرت مجاملاتهم لى ، وألفتُ أن أحييهم ويحيونى فى الخروج والدخول ، وأنستُ بصحبتهم وودهم الصادق ، حتى لقد وجدتُنى أشعرُ شعورًا غامضًا بالذنب تجاههم وأنا أمضى فى مشروع إعداد الشقة الجديدة للسكن ، كأنما أرتكب بذلك « خيانة » غير مفهومة لصداقتهم !

وبسبب هذا الشعور الغامض نفسه فشلتْ إحدى محاولاتى السابقة للانتقال إلى سكن آخر منذ بضع سنوات ، وبعد أن عاينتُ المسكن الجديد وأُعجِبْتُ به واتفقتُ مع صاحبته على توقيع العقد معها خلال يومين ، شاكرًا للأديبه الفاضلة التى دلتنى عليه جهدها المخلص ، رجعتُ إلى مسكنى مبتهجًا بتوفيقى فى العثور على السكن المطلوب ، فما أن نزلتُ من السيارة وحييتُ بواب العمارة وبعض أصحاب المحال التجارية الواقفين على الطوار وحيونى ، وتبادلنا بعض الكلمات العابرة ، حتى وجدتُ ابتهاجى السابق يتبدد ويحل محله إحساس آخر بالشجن

والاكتئاب ، وليومين كاملين صاحبنى هذا الإحساس الغامض فى الرواح والمجىء ولم يهنأ لى نوم ولا صحو ، وفى اليوم الثالث وجدتُنى أتصل بالأديبة الفاضلة واسطة الخير فى الارتباط بالسكن الجديد ، وأعتذر لها عن عدم قدرتى على مغادرة هذا الجوار ، وأنهى إليها تفضيلى لأن أظل متعلقًا بالأمل المستحيل فى أن أجد بغيتى فى المسكن الأوسع على بعد أمتار قليلة من مسكنى القديم ، وحبذا لو كان فى نفس العمارة التى أقيم بها ! . . وفشل هذا المشروع كما فشلتْ مشروعات أخرى مشابهة ، إلى أن أذن الله لى أخيرًا باستجماع شجاعتى النفسية والإقدام على إعداد مسكن جديد لا يبعد كثيرًا عن المسكن السابق والانتقال إليه ، فإن قلتُ لك إننى أمضيتُ الأيام الأولى فيه وأنا لا أشعر بأننى مقيم فى بيتى ومستقرى الآمن كما يشعر كل إنسان ، وإنما فى « فندق » صغير انتقلتُ إليه مع أسرتى لأسباب قهرية ولن تطول إقامتنا به ، ثم نرجع متلهفين إلى مسكننا القديم وجيراننا الأحباء وحياتنا الأصلية ، فلستُ أبالغ فى ذلك .

ولا عجب فيما أقول لك ولا غرابة ، فإنما يسعد الإنسان بالإنسان وليس بالمكان ، فادع لى الله ألا تطول « غربتى » فى هذا المسكن الجديد البارد ، حيث لا أعرف أحدًا ولا يعرفنى أحد ، ولا تربطنى بأحد أية روابط إنسانية حتى الآن . . وادع لى الله أيضًا ألا تطول حالة انعدام الوزن التى أعانى منها الآن كثيرًا ، ولك منى محبتى وعرفانى وشكرى جزاءً وفاقًا لذلك .

القــرارات الأخــيرة

قرأتُ عن مرضه وقرب سفره للعلاج فى فرنسا وأنا بباريس ، فاعتزمتُ زيارته فى المستشفى حين يجىء .

ترقبتُ وصوله ، ثم توجهتُ إليه برفقة أحد زملائى بمكتب الأهرام بباريس والقنصل المصرى العام بالعاصمة الفرنسية . توقفتُ خلال الطريق أمام محل للزهور ، وطلبتُ من البائعة باقة ملائمة لزيارة مريض بالمستشفى ، فراحت تجمع بعض نباتات الزينة وتنسقها فى باقة صغيرة . طلبتُ منها أن تضيف إليها بعض الورود الفَوّاحة ، فقالت لى إنهم فى المستشفيات لا يفضلون الزهور ذات الرائحة ، وإنما الزهور ذات الألوان المبهجة فقط ، فاحترمتُ « الخبرة » الفرنسية فى هذا الشأن وسلمتُ لها باختيارها .

توقفت السيارة أمام مستشفى « أوتيل ديوى » ، فتجدّد عجبى لاسم هذا المستشفى العريق الذى زُرْتُهُ من قبل أكثر من مرة ، إذ لا معنى لكلمة « أوتيل » سوى الفندق أو المقر . . ولا معنى لكلمة « ديوى » فى الفرنسية سوى الله ! . . فهل تكون الترجمة الحرفية لاسم هذا الفندق هى « فندق الله » كما نقول نحن عن المسجد إنه بيت الله . . وليس لله – عز وجل – بيت ولا فندق لأن الكون كله بيته وفندقه ؟

تلفتُّ حولى قبل أن أدخل المستشفى ، فشاهدتُ كنيسة نوتردام الشهيرة التى تُجرَى أعمال تجديدها ببطء شديد وعناية كبيرة منذ حوالى عامين ، وراقبتُ التجمع الدائم للسياح فى الساحة التى تطل عليها الكنيسة ، وتذكرتُ أننى كثيرًا ما شاركتهم زيارة هذه الكنيسة الأثرية والتسكع أمامها .

ترتبط الأماكن عندى فى كثير من الأحيان بالأعمال الأدبية الشهيرة التى قرأتها عنها قبل أن أراها ، وبالأدباء الذين كتبوها . . ولهذا فلم يحدث ذات مرة أن جئتُ إلى هذا المكان بغير أن أتذكر اسم الروائى الفرنسى الكبير « فيكتور هوجو » وروايته الشهيرة « أحدب نوتردام » ، كما لم آتِ يومًا إليها إلا ورفعتُ بصرى إلى برج الكنيسة شاهق الارتفاع . . فيخيّل إلىّ أننى أرى « كازيمودو » الأحدب المشوّه الأصمّ قارع أجراس هذه الكنيسة يدق أجراسها ، أو يقاتل بضراوة فوق أسوارها مَنْ يحاولون اقتحام الكنيسة لإخراج الغجرية الجميلة « أزميرالدا » منها ، وتنفيذ حكم الإعدام شنقًا فيها ، حتى إذا نجح « كازيمودو » فى قتل عدد كبير منهم وإبعادهم عن أسوار الكنيسة ، رجع إلى الغرفة التى أخفاها فيها فلم يجدها ، لأن الأسقف العاشق « كلود فروللو » الذى رفضتْهُ أزميرالدا قد تحايل لإخراجها من الكنيسة وتسليمها لمن نفذوا فيها حكم الإعدام ، فلا يتمالك كازيمودو نفسه ولا يتردد ـ حين أدرك الدور الذى قام به سيده الأسقف ـ فى أن يطوّح به من فوق أسوار الكنيسة إلى هذه الساحة التى نقف أمامها الآن ، ثم يختفى الأحدب المشوه الذى حمل أعظم الحب لهذه الفتاة الغجرية منذ عطفتْ عليه وهو معلّق فى آلة التعذيب بأحد الميادين ، وقدمتْ له جرعة الماء مع أنه كان يُعاقَبُ بتهمة محاولة اختطافها ، تنفيذًا لأمر سيده الأسقف .

وبعد سنوات طويلة عثروا على جثمانه فى قبر أزميرالدا الجميلة . . ووجدوا عظمة عنقه سليمة ، مما يقطع بأنه لم يُشنق بأمر السلطات ،

وإنما سعى بقدميه إلى قبر محبوبته ، ورقد إلى جوارها باختياره ، حتى مات إلى جوار من يحب !

انتزعتُ نفسى من تأملاتى واتجهنا إلى باب المستشفى ، فتذكّرتُ أن آخر زيارة لى لهذا المستشفى كانت لزيارة الكاتب الصحفى الأستاذ «مفيد فوزى » حين ألمّتْ به وعكة صحية شديدة منذ سنوات . .

يا إلهى . . ما أكثر المرضى من الكُتّاب والأصدقاء الذين أزورهم بمستشفيات باريس كلما جئت إليها فى زيارة . . فما من مرة جئتُ فيها إلى باريس إلا وعلمتُ بوجود زميل أو صديق فى رحلة علاج ، فأسعى إليه حيث يكون وأقضى معه بعض الوقت !

يزداد عجبى وإعجابى كلما استرجعتُ فى مخيلتى هذا الحديث القدسى الفريد الذى رواه أبو هريرة فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم ، مرضتُ فلم تَعُدْنى ! قال : يا ربّ ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمتَ أن عبدى فلانًا مرض فلم تَعُدْهُ ؟ أما علمتَ أنكَ لو عُدْتَهُ لوجدتَنى عنده!

فأىّ معنى فريد فى هذه الكلمات الطاهرة « مرضتُ فلم تَعُدْنى» ! . . وأى قيم أخلاقية سامية ! لقد قال العلماء فى تفسير هذا الحديث القدسى : إن الله سبحانه وتعالى قد نسب المرض إلى ذاته العلية، لكن المراد به هو العبد . . تشريفًا للعبد المريض وتقريبًا له ،

وإن معنى « وجدتنى عنده » هو : وجدت ثوابى وكرامتى فى حضرة هذا المريض !

***

صعدنا السلم إلى الدور الأول ، ولاحظتُ ـ كالعادة ـ نظافة ردهات المستشفى وهدوئه ، و « اللوحة » الجميلة من الزهور الملونة التى تتوسط فناءه الداخلى . طرقنا باب الغرفة ، فجاءنا صوته يدعونا للدخول . دخلنا إليه فوجدناه وحيدًا فى فراشه يتطلع إلينا مبتسمًا ومرحبًا بنفس ملامح الوجه الرومانى المميز . . ونفس النظرة الذكية اللامعة فى عينيه !

فمتى بدأت علاقتى بهذا الرجل الذى أزوره الآن فى مستشفى أوتيل ديوى ؟

أذكر أننى كنتُ تلميذًا بالسنة الأولى الثانوية ، حين خطر لأحد تلاميذ المدرسة أن يبدأ مشروعًا تجاريًا « جريئًا » فى وقته ، هو بيع الصحف والمجلات داخل فناء المدرسة قبل الدراسة وفى وقت الفسحة ، وسمح له ناظر المدرسة بذلك تقديرًا لظروفه ، فكنتُ أشترى منه «الأهرام» لأقرأه بين الحصص ، مع أن أبى يشتريه كل يوم ، وواظبتُ على هذه العادة كل أيام الأسبوع ، ماعدا يومًا واحدًا كل أسبوع هو يوم الثلاثاء ، فكنتُ أشترى « الأخبار» بدلاً من « الأهرام » . ولاحظ ذلك بائع الصحف التلميذ وسألنى عن السبب ، فأجبتُه : لأن « أنيس منصور » يكتب فى هذا اليوم يوميات الأخبار فى صفحتها الأخيرة !

وهكذا ارتبط عندى يوم الثلاثاء ـ ولسنوات طويلة ـ بمقال أنيس منصور ولذعاته الأدبية . . وسياحاته الفكرية . . وأسلوبه الرشيق الجميل ، كما ارتبط من قبل يوم الثلاثاء عند عدد كبير من أدباء الجيل الماضى بموعد صالون الأديبة اللبنانية « مىّ زيادة » ، وقد كانوا يتطلعون إليه وينتظرونه بشوق ولهفة حتى قال الشاعر اللغوى الأديب « حفنى ناصف » :

إنْ لم أُمَتَّعْ بمىٍّ ناظـرىَّ غـدًا

لا كـان صُبْحُكَ يا يومَ الثلاثاءِ

أما كتبه . . ومقالاته الأدبية الأخرى ، فلقد قرأتُ منها الكثير، و«عرفتُ » منها أيضًا الكثير ، ومن أحبها إلى قلبى « كانت لنا أيام فى صالون العقاد » و « الخالدون مائة ، أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم »، وكتاب صغير قديم يعبر فيه عن حيرته الأبدية وغربته النفسية كأديب، فسمّاه « نحن أولاد الغجر » .

وبفضل كتابه القيم عن العقاد ازددتُ حبًّا للعقاد وفهمًا لشخصيته وأدبه ، ومن هذا الكتاب بالذات فهمتُ معنى رمز مدينة روما وهو «ذئبة ترضع أخوين » ، ووجدتنى حين زرتُ العاصمة الإيطالية لأول مرة أشرحه لمن معى نقلاً عن كتاب أنيس منصور . . وكيف أنه إشارة لقصة أو أسطورة الأخوين « رومولوس » و « ريموس » اللذين طردهما عمهما من البيت فى القرن الثامن قبل الميلاد ، فذهبا إلى الغابة واحتضنتهما ذئبة وأرضعتهما ، وعندما اهتدى إليهما الناس أعادوهما إلى الحياة العادية فأقاما مدينة روما !

وعن ترجمته الأدبية الجميلة قرأتُ لأول مرة أعمال الكاتب المسرحى السويسرى « ديرنمات » ، وقرأت عن « ألبرتو مورافيا » أديب إيطاليا العظيم ، وغيرهما كثيرين وكثيرين ، وتعاملتُ معه طوال ما يقرب من أربعين عامًا كأديب ومفكر فقط ، ورفضتُ عامدًا أن أتعامل معه ككاتب سياسى ، لكيلا يُفسد علىّ اختلاف الآراء حول المواقف والاتجاهات السياسية صِلتى الفكرية به ، بل وتمنيتُ لو لم يكن قد اقترب أصلاً من بحر السياسة المضطرب دائمًا بالعواصف والأنواء واختلاف الآراء وتعارضها ، لأن الأديب فوق الخلاف ، أما الكاتب السياسى فهو فى بؤرة الخلاف والاتفاق وصراع الآراء ، وقد تتفق مع آرائه اليوم وتختلف غدًا ، وهكذا .

سألتُ الأستاذ أنيس منصور كيف أصيب بالجلطة فى قدمه وهو الذى يتبع فى حياته نظامًا صحيًّا دقيقًا ، ويحرص على المشى لمسافات طويلة ، وكان يصاحب الرئيس « السادات » فى ممارسته لرياضة المشى كل يوم لمدة ساعتين ؟ فأجابنى بأنه قد توقف للأسف عن ممارسة المشى منذ فترة غير قصيرة ، وأنه قد أصيب بالجلطة لأنه انشغل بكتابة كتاب ضخم يروى فيه سيرته الذاتية ، فراح يجلس إلى مكتبه بلا حراك لأكثر من ١٢ ساعة كل يوم ، حتى فوجىء ذات يوم بتورّم قدمه ، وبدأ العلاج . . فتبيّن أنه قد أُصيب بجلطة فيها ، وأن هذه الجلطة قد تحركت داخل أوردة الجسم حتى بلغت الرئة . وخضع للعلاج المكثف فى مصر ، وتم تفتيت الجلطة بالفعل ، لكن الأطباء نصحوه بعد مرحلة

معينة من العلاج بالسفر إلى باريس ليعالَج تحت إشراف البروفيسور «روشفور» أكبر أطباء الصدر فى فرنسا ، وطمأنه الطبيب الفرنسى الكبير إلى إمكانية محاصرة « شظايا » هذه الجلطة داخل الجسم ومنعها من الانتقال إلى أماكن أخرى أكثر حساسية ، لكن الأمر يتطلب منه الراحة التامة وعدم الحركة لفترة محددة ، وهو ـ كما يقول عن نفسه ـ مريض مثالى فيما يتعلق بتناول الأدوية ومواعيدها ونظام الغذاء ، أما فيما يتعلق بعدم الحركة فهو مريض مشاكس ، لكنه يحاول قدر جهده الالتزام بتعليمات الطبيب بهذا الشأن . وألححنا عليه بضرورة الانصياع التام لتعليمات الأطباء لكى يكتب له الله الشفاء ويرجع إلى بلده وأهله وقرائه. . وقلت له إن التمرد الفكرى يمكن أن يكون أمرًا مفهومًا من أديب مثله ، لكن التمرد على تعليمات الأطباء أمر لا يمكن قبوله من مفكر يعى جيدًا ماذا يعنى ذلك من خطر عليه ، ووعدنا بالالتزام ، وأرجو أن يفى بوعده .

فهل اختلفتْ شخصية « المريض » أنيس منصور عن شخصية «الأديب والمفكر والساخر اللاذع » أنيس منصور ؟

لم أشعر بذلك لحظة واحدة خلال زيارتى له ، فلقد انطلق «المحدّث البارع » المعهود يتحدث ويعلق . . وينتقد ويلذع بطرف لسانه كما يلذع بطرف قلمه حين يريد ، وروى لنا ذكريات سياسية وأدبية ضاحكة كثيرة . . وأضحكنا كثيرًا وإن لم يضحك هو إلا قليلا . . وكانت « قمة » حكاياته السياسية اللاذعة ما رواه لنا بمناسبة زيارة دبلوماسى مصرى

كبير له بالمستشفى قبل مجيئنا بساعات ، فروى لنا أنه صاحبَهُ منذ عشرين سنة إلى زيارة دولة إفريقية يحكمها جنرال من جنرالات الانقلابات العسكرية فى إفريقيا ، وكانت هناك جفوة مؤقتة بين البلدين بسبب مشكلة بروتوكول صغيرة ، فقرر المسئول الدبلوماسى المصرى أن يقوم بزيارة ترضية لهذا البلد الإفريقى واصطحب معه خلال الزيارة صديقه الأديب أنيس منصور ، وتوجها معًا لمقابلة هذا « الزعيم » ، فكان رجاء الدبلوماسى لصديقه الأديب هو ألا يضحك مما قد يسمعه خلال اللقاء لكيلا يفسد عليه الغرض من الزيارة ، وهو مجاملة هذا الجنرال الإفريقى وإزالة الجفوة العابرة بين البلدين ، ودخل الاثنان إلى الرئيس الإفريقى ، فاستقبلهما بتحفظ مقصود وهو يرتدى زى الماريشالية ويمسك فى يده بصولجان ثقيل من الذهب الخالص ، وبدأ الدبلوماسى حديث المجاملات العادية ، والرجل مازال على تحفظه ، ثم أراد أن يذيب جليده فقال له بلهجة خطيرة : جِئنا إليك لنلتمس الحكمة لديك . . ونستشيرك فى الموقف الدولى الراهن ونستعين بخبرتك وحنكتك السياسية المعروفة فى التعامل معه !

فلاحظ أنيس منصور أن ملامح الرئيس الإفريقى الجامدة قد بدأت تسترخى رويدًا رويدًا !

وواصل الدبلوماسى حديثه فقال : ولقد تدارسنا قراراتكم الأخيرة . . وهى قرارات خطيرة تعكس بُعد نظركم وفهمكم العميق لمجريات الأمور . . ونطلب الحصول على النصوص الكاملة لها للعكوف على

دراستها واستجلاء مراميها العميقة ! . . فإذا بالرجل يسترخى تمامًا فى مقعده . . وينقل الصولجان الذهبى من يده اليمنى إلى اليسرى باستمتاع شديد . . وقد زالت كل الحواجز وانفرجت الأسارير وظهرت حفاوة الترحيب ، وأمر الرجل نائبه الذى يحضر المقابلة بدعوة ضيفيه للغداء ، وتسليم الدبلوماسى نصوص قراراته الأخيرة . . وغادر الاثنان مكتبه وسط الحفاوة والإجلال !

وفى الطريق إلى خارج القصر الجمهورى مال أنيس منصور ـ الذى بذل مجهودًا كبيرًا ليتحكم فى تعبيرات وجهه خلال اللقاء ـ على أُذن صديقه الدبلوماسى وسأله عن هذه القرارات الأخيرة التى تحدث عنها ، وفى أى مجال من المجالات هى ؟

فإذا بالدبلوماسى الكبير يجيبه هامسًا : لا أعرف عنها شيئًا ، ولا أعرف إذا كان قد أصدر مثل هذه القرارات من الأصل أم لا . . لكن لأنه من زعماء العالم الثالث فلابد أن له قرارات أخيرة ، ولابد أن هذه القرارات خطيرة وجليلة الشأن ، وقد صدرت فى « منعطف تاريخى » تواجهه البلاد ، ويتطلب رؤية شاملة و « مرحلة تاريخية جديدة » من مراحل العمل الوطنى ، لأن « ساعة العمل الثورى » قد دقت ، وآن الأوان لبدء مرحلة « الانطلاق » والخروج من عنق الزجاجة ، إلى آخر هذه الخزعبلات الشائعة فى أدبيات الأنظمة « الثورية » فى العالم الثالث !

ولم يتمالك أنيس منصور نفسه من الضحك عاليًا قبل أن يغادر أسوار

القصر الجمهورى ، ولم نتمالك نحن أنفاسنا من الضحك على هذه النادرة السياسية ، ولا على الطرائف الأدبية والسياسية الأخرى التى رواها لنا طوال زيارتنا له حتى أشفقنا عليه من إجهاد الكلام . ولم يشفق هو على نفسه منه ، ولا من حدَّة ذكائه ولذعة سخريته اللتين لا يعطيهما أنيس منصور إجازة قصيرة حتى وهو فى فراش المرض !

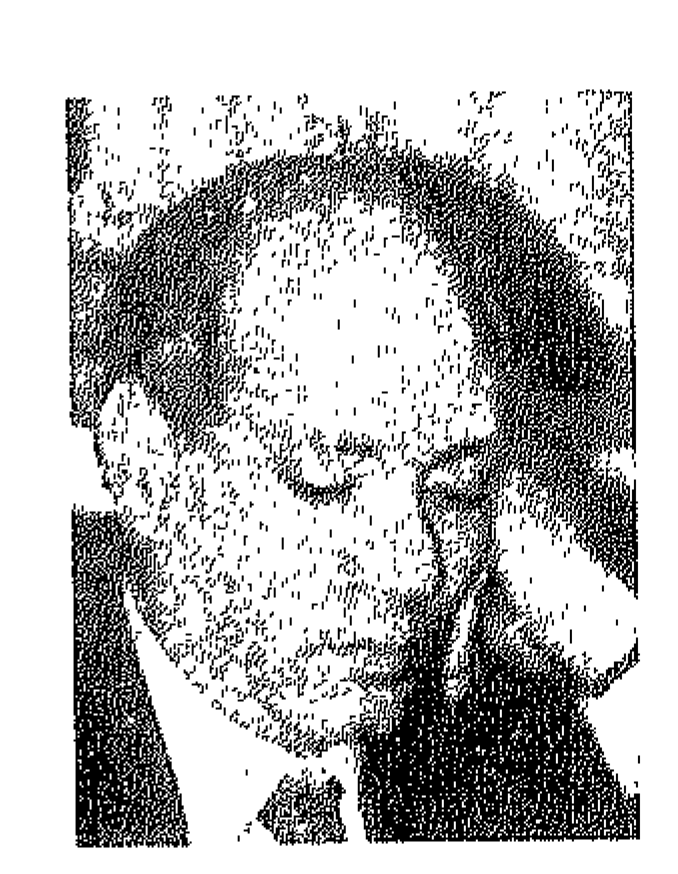
وغادرناه ضاحكين . . بعد أن دخلنا إليه فى البداية مشفقين ومتوجسين ، وعلمتُ بعد عودتى للقاهرة أنه قد غادر المستشفى للإقامة فى فندق قريب ، وأنه سيواصل العلاج الخارجى والتردد على طبيبه لمدة شهرين قبل أن يرجع إلى مصر ، فرجوتُ له اكتمال الشفاء ، وتمنيتُ أن يرجع سالماً إلى مشاغباته الأدبية والسياسية ، ويواصل تقطير زهور الفكر والأدب وتقديمها من خلال مداد قلمه الساحر ، لقرائه . . والمتفقين معه فى الرأى والمخالفين على السواء .

كتب للمؤلف

١ ـ أصدقاء على الورق	قصص انسانية	الطبعة	الأولى	١٩٨٦ (نفد)
٢ ـ يوميات طالب بعثه	أدب رحلات	الطبعة	الأولى	١٩٨٧ (نفد)
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص انسانية	الطبعة	الأولى	١٩٩٨ (نفد)
٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبيية	الطبعة	الرابعة	١٩٩٦ (نفد)
٥ ـ نهر الحياة	قصص انسانية	الطبعة	الثالثة	١٩٩٦
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص انسانية	الطبعة	الثالثة	١٩٩٦
٧ ـ صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الثانية	١٩٩٣
٨ ـ العيون الحمراء	قصص انسانية	الطبعة	الخامسة	١٩٩٨
٩ ـ افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الثانية	١٩٩٦
١٠ ـ اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الرابعة	١٩٩٧
١١ ـ أزواج وزوجات	قصص انسانية	الطبعة	الثالثة	١٩٩٦
١٢ ـ أرجوك لا تفهمنى	قصص انسانية	الطبعة	الثانية	١٩٩٦
١٣ ـ رسائل محترقة	قصص انسانية	الطبعة	الثانية	١١٩٦
١٤ ـ وقت للسعادة . . ووقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الثالثة	١٩٩٦
١٥ ـ شركاء فى الحياة	قصص انسانية	الطبعة	الثالثة	١٩٩٦
١٦ ـ أماكن فى القلب	قصص انسانية	الطبعة	الأولى	١٩٩٤
١٧ ـ لا تنسنى	رومانسية	الطبعة	الثانية	١٩٩٦
١٨ ـ نهر الدموع	قصص رومانسية	الطبعة	الثانية	١٩٩٦
١٩ ـ أقنعة الحب السبعة	قصص انسانية	الطبعة	الأولى	١٩٩٦

العنوان	النوع		الطبعة	السنة
٢٠ ـ خاتم فى اصبع القلب	صور أدبية	الطبعة	الثانية	١٩٩٦
٢١ ـ وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة	الثالثة	١٩٩٩
٢٢ ـ سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الثانية	١٩٩٨
٢٣ ـ هو.وهى والآخرين	قصص انسانية	الطبعة	الأولى	١٩٩٧
٢٤ ـ مكتوب على الجبين	قصص انسانية	الطبعة	الأولى	١٩٩٧
٢٥ ـ اوراق الليل	قصص انسانية	الطبعة	الأولى	١٩٧٧
٢٦ ـ طائر الأحزان	قصص انسانية	الطبعة	الثانية	١٩٩٧
٢٧ ـ اعط الصباح فرصه	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الأولى	١٩٩٦
٢٨ ـ الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة	الأولى	١٩٩٧
٢٩ ـ سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة	الثانية	١٩٩٨
٣٠ ـ قالت الأيـام	قصص انسانية	الطبعة	الأولى	١٩٩٧
٣١ ـ صور من حياتهم	قصص قصيرة	الطبعة	الأولى	١٩٩٨
٣٢ ـ ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الأولى	١٩٩٨
٣٣ ـ ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الأولى	١٩٩٨
٣٤ ـ عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الثانية	١٩٩٩
٣٥ ـ قدمت اعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة	الأولى	١٩٩٩
٣٦ ـ ترانين الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الأولى	١٩٩٩
٣٧ ـ الثمرة المره	قصص انسانية	الطبعة	الأولى	١٩٩٩
٣٨ ـ دموع القلب	قصص انسانية	الطبعة	الأولى	١٩٩٩
٣٩ ـ أيام السعادة والشقاء	قصص انسانية	الطبعة	الأولى	١٩٩٩
٤٠ ـ أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الأولى	٢٠٠٠
٤١ ـ من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبيه	الطبعة	الأولى	٢٠٠٠

عربية للطباعة والنشر
7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043



- مدير تحرير الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .
- حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية .
- يكتب باب بريد الجمعة الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام .
- صدر له أكثر من ٣٧ كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصاً قصيرة وصوراً أدبية ومقالات فى أدب الرحلات .
- له ثلاث مجموعات قصصية هى : « أماكن فى القلب » و « لا تنسنى » ، و« الحب فوق البلاط » .

هل يستطيع الإنسان أن يعيش حياته مرتين أو أكثر لكى يتعلم ويجيد فن الحياة ، ويحسن التعامل مع ما يواجهه فى حياته من اختبارات عسيرة وتناقضات كثيرة وألغاز محيرة . . ؟!

فى هذا الكتاب يجيب الاستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع على هذا التساؤل بأسلوبه الإنسانى المتميز ، فيقول إن الإنسان ـ لكى يحقق هذه الأمنية الصعبة ، فإنه يحاول أن «يطيل» عمره المحدود بإضافة أعمار الآخرين إليه . . بمعنى إضافة ما تعلمه الآخرون من دروس حيـ
إلى ما تعلمه هو من أخطاء وعـ
بذلك يضيف عصارة أعمار هـ
إلى عمره !

الدار المصرية اللبنا